INSTITUT
DU MONDE
ARABE

معهد العالم العربي

كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

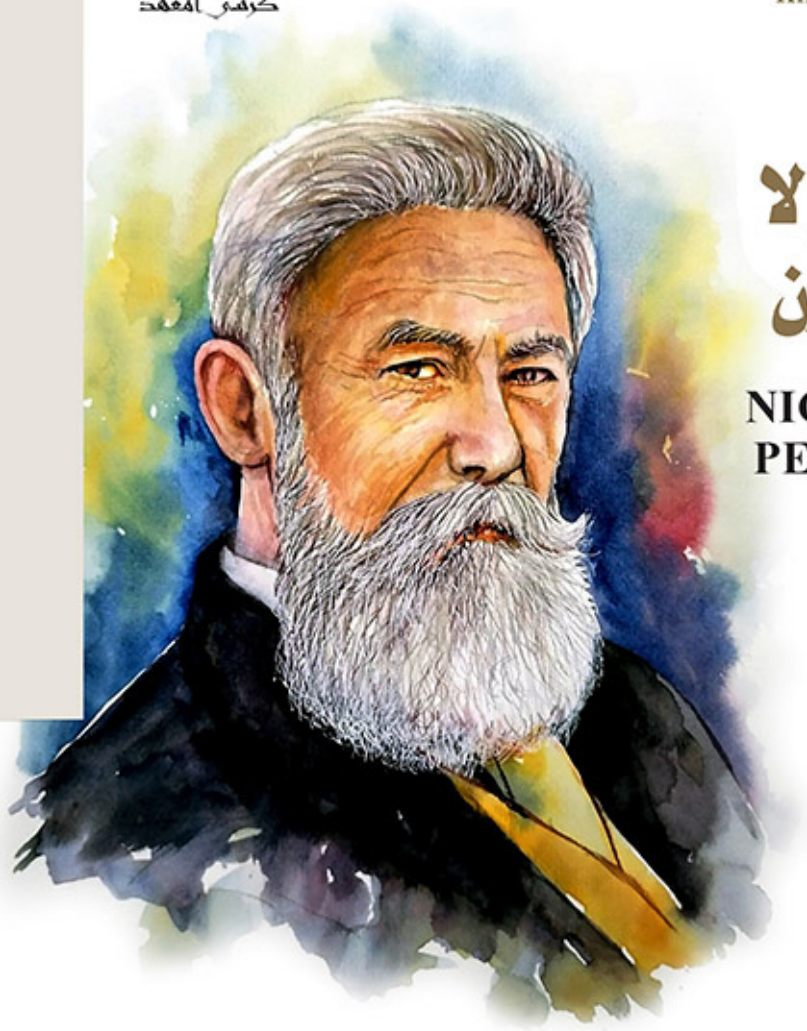

# نيكولا بيرون

# NICOLAS PERRON

أمل الصبان

100 كتاب وكتاب
30

نيكولا بيرون

الكتاب : **نيكولا بيرون**
المؤلفة : **د. أمل الصبان**
الطبعة : الأولى 2021
عدد الصفحات : 128
القياس : 13 × 19
الإيداع القانوني : 2021MO3506
الترقيم الدولي : 978-9920-677-13-4

جميع الحقوق محفوظة

**المركز الثقافي للكتاب**

**الدار البيضاء / المغرب**
6، زنقة التيكر
هاتف : 212522810406+
فاكس : 212522810407+
markazkitab@gmail.com

**بيروت / لبنان**
الحمراء ـ شارع المقدسي ـ بناء بلبيسي
هاتف : 9611747422+
فاكس : 9611744733+

INSTITUT
DU MONDE
ARABE
معهد العالم العربي
كرسي المعهد

King Faisal
PRIZE

# نيكولا بيرون

د. أمل الصبان

المركز الثقافي للكتاب
للنشر والتوزيع

# المحتويات


عتبة..... 7

المقدمة..... 9

نيكولا بيرون: حياته وتكوينه المعرفي وتجاربه العملية
والعلمية..... 14

نيكولا بيرون والسان سيمونيون..... 21

نشاط نيكولا بيرون العلمي وإنتاجه الفكري..... 30

إسهام نيكولا بيرون الثقافي بين مصر وفرنسا والجزائر..... 58

مختارات من كتابات نيكولا بيرون..... 79

مختارات مما كُتب عن نيكولا بيرون..... 93

ثبت ببليوجرافي مختصر بأهم أعمال نيكولا بيرون
وبالمواقع الشبكية التي تخصه أو تتعلق به..... 122

# عتبــة

يصدر هذا الكتاب ضمن مشروع معرفي طموح، تبنته ونفذته مؤسستان ثقافيتان كبيرتان، هما "جائزة الملك فيصل" بالرياض، و"معهد العالم العربي" في باريس، ممثلاً في "كرسي المعهد". يهدف هذا المشروع إلى التعريف بمائة عالم وباحث، من العرب والفرنسيين، ساهموا في تقديم إحدى الثقافتين للأخرى. لقد كرس هؤلاء الباحثون والمثقفون، العرب والفرنسيون، جهودهم لتعزيز مختلف أشكال الحوار الجاد، والتفاعل الخلاق بين ضفتي المتوسط، خلال القرنين الماضيين. وبفضل منجزاتهم الاستثنائية استحقوا الاحتفاء بهم، والكتابة عنهم، من أجل تخليد ذكراهم، والتعريف بهم لدى الأجيال التالية؛ التي نأمل أن ينظروا إليهم باعتبارهم رموزاً مشعة، تلهم العقول، وتضيء مسالك المستقبل، لكل من يعي أن الثقافة بمكوناتها العلمية والفكرية والجمالية، هي الطريق الأمثل للتعارف والتعاون بين البشر.

اختيار ستين شخصية عربية، وأربعين شخصية فرنسية، جاء نتيجة لعمل مهني متصل، بذلته لجنة علمية مشتركة على

مدار أشهر. حرصت اللجنة أن تكون الأسماء المختارة ممثلة، قدر الممكن، لمختلف الفترات التاريخية، والتخصصات المعرفية، والتوجهات الفكرية والإبداعية. إننا ندرك تماماً أن في كل اختيار مخاطرة. ولو كتبنا عن ألف شخصية وأكثر، فسيظل هناك أعلام يستحقون الحضور ضمن هذه السلسلة.

يتوجه هذا المشروع الثقافي إلى قارئ عام يقظ، قد يدفعه فضوله إلى المزيد من البحث المعمق في منجزات هؤلاء الوسطاء الثقافيين، الذين طالما استمتعنا بكتاباتهم، وأفدنا من أفكارهم الغنية المجددة.

إنها قناعة من المؤسستين بإضاءة مائة شمعة، تدشيناً لعمل مفتوح، نأمل أن يتممه آخرون من بعدنا، وهنا يحقق المشروع أهدافه الأكثر جمالاً ونبلاً.

خالص التقدير للمؤلفين، الذين آمنوا معنا بالفكرة، وساهموا في تحقيقها. والشكر الأوفر لصاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل، رئيس هيئة الجائزة، والسيد جاك لانغ، رئيس المعهد، لدعمهما ومتابعتهما للمشروع. والله الموفق.

| | |
|---|---|
| أمين عام الجائزة | مدير عام المعهد |
| عبد العزيز السبيل | معجب الزهراني |

# مقدمة

**«الدكتور بيرون، أحد أوائل الملتزمين في كتيبة الرجال المستنيرين والشجعان الذين ساندوا في مصر المبادرات الحضارية لمحمد علي... آمن بالشرق وحلم بتجديده وعمل لتحقيق حلمه بتفان نادر»**
**إرنست رينان**

نيكولا بيرون Nicolas Perron (1798 – 1876) طبيب فرنسي مستعرب من أتباع الحركة السان سيمونية، وأحد أكبر الدعاة إلى نوع من الاتحاد بين فرنسا والشرق العربي. كان مترجماً ومستشرقاً، تتلمذ على المستشرق الفرنسي الكبير سلفستر دو ساسي Sylvestre De Sacy بمدرسة اللغات الشرقية بداية من عام 1825، وكان في الخامسة والثلاثين عندما تم انتدابه لتدريس الكيمياء والفيزياء في مدرسة الطب بأبي زعبل التي كانت تُخَرّج الأطباء والممرضين للجيش المصري، وتنظيم التعليم على أسس جديدة في عصر محمد علي باشا، وتولى إدارة مدرسة الطب خلفاً لكلوت بك، وأتقن العربية، وكتب في تاريخ العرب والإسلام. لقد كان أحد أبرز مهندسي التحديث في مصر، وخاصة في الميدان الطبي والتقني إضافة إلى شغفه بالأدب والروايات والملاحم العربية.

تزامن مجيء الدكتور نيكولا بيرون إلى مصر مع وصول السان سيمونيين، وانضم إليهم وعمل أستاذاً بمدرسة الطب ثم مديراً لها ونائب مدير مستشفى قصر العيني، كما تولى منصب كبير أطباء بالمستشفى الأوروبي بالإسكندرية عقب إقامته لعدة سنوات في فرنسا لإدارة مدرسة فرنسية-عربية. وتم تكليفه من عام 1856 وحتى عام 1859 بإنشاء مدرسة ثانوية فرنسية-عربية بالجزائر.

أما البعثة السان سيمونية إلى مصر (1833-1850)، فقد جاءت بعد قرار حلّ الجماعة في فرنسا ومصادرة مطبوعاتها ففكّر الأتباع في الهجرة إلى أراض جديدة ينفذون أفكارهم عليها، فكان خيارهم الأوّل القارّة الأمريكية، وخاصة المكسيك، ليشقّوا قناة تصل بين المحيط الأطلسي والمحيط الباسيفيكي التي عُرفت فيما بعد باسم قناة بنما. ولكنهم فضّلوا التوجّه إلى الشرق لتنفيذ المشاريع الصناعية التي طالما حلم بها أستاذهم، وخاصة شقّ قناة بين البحرين: المتوسط والأحمر. وقدّمت البعثة السان سيمونية عدداً من الأجوبة عن إمكانية التواصل بين ثقافة الأنا وثقافة الآخر؛ خاصة بعد تولّي محمد علي باشا حكم مصر (1805-1849) واتخاذ دولته إجراءاتٍ تحديثيةً ترمي إلى جعل مصر دولة عصرية، مستعيناً في ذلك بعدد من الخبراء والمدرسين الأوروبيين وخاصة من الفرنسيين. وكان أتباع الفيلسوف الفرنسي كلــود هنري دو سان سيمون Claude Henri de Saint Simon (1760 - 1825) من أهم الذين التحقوا بمصر في تلك الفترة للمشاركة في هذه التجربة التحديثية. وقد ترافق قدوم أتباع سان

سيمون إلى مصر وإسهامهم في المشاريع التحديثية لدولة محمد علي مع بدايات تَـكَوُّن أنتلجنسيا مصرية خاصة من أعضاء البعثات التعليمية التي دأب محمد علي باشا على إرسالها إلى أوروبا لتلقِّي المعارف والمهارات في شتى العلوم والصنائع.

وقد قدَّمت المدرسة السان سيمونية- بأبعادها الإنسانية وفلسفتها الاجتماعية القائمة على فكرة الوحدة العالمية- فرصة تاريخية لحصول التثاقف بين الشرق والغرب من خلال احترام الآخر الشرقي والبحث في خصوصياته السوسيوثقافية والتعامل بكثير من الإنصاف مع ثقافته وحضارته واحترام اختلافه الديني، خلافاً للحملة الفرنسية التي كانت قائمة على استعراض التفوق العسكري والعلمي والتقني. فقد لعبت بعثة أتباع سان سيمون دور القناة الواصلة بين الشرق والغرب، وكان لاهتمام أتباع سان سيمون بثقافة الشرق أثر بالغ في تقبُّل الشرقيين لمقولات المدنية الغربية خلافاً للحملة الفرنسية التي يعدّها البعض صدمة الحداثة.

ويعود إلى الدكتور بيرون الفضل في ترجمة المعجم الكيميائي إلى اللغة العربية، وهو أول قاموس علمي في اللغة العربية في العصر الحديث، وذلك رغم صعوبة ترجمة بعض مفرداته وإيجاد مقابل لها في اللغة العربية. وقد مكّن هذا القاموس من إجراء عشرات التجارب الكيميائية والفيزيائية بمدرسة الطب بالقاهرة. وكان الدكتور بيرون قد قام بترجمة كتاب الشيخ محمد عمر التونسي "رحلة إلى دارفور" Voyage au Darfour، وقد نُشر الكتاب بعد كتابة فرانسوا جومار François Jomard لمقدمته.

كما قام بيرون بترجمة أعمال صديقه رفاعة الطهطاوي محاولاً التعريف بأفكاره وآرائه في فرنسا، وتقديم كتابه "تخليص الإبريز"، وأسهب في الحديث عن مدرسة الألسن التي أسسها رفاعة سنة 1835 ودور الترجمة في مدّ جسور التواصل الثقافي والحضاري بين الشرق والغرب.

وقام الدكتور بيرون بترجمة أوّل نشيد وطني مصري ألفه رفاعة، وذلك بمقال له في مجلة باريس Revue de Paris في 15 أبريل 1856. وكان هذا النشيد قد طُبع في مطبعة بولاق وعزفه الجيش المصري منذ ديسمبر 1855.

كما ترجم بيرون كتاب خليل بن إسحاق، الفقيه المالكي، وقد نُشر بين سنوات 1848 و1857 في أربع مجلات.

وعُرف بيرون بدأبه في جمع أخبار التاريخ والآداب العربية، وألف كتاباً بعنوان "عن مصر"، إضافة إلى ترجمة عدّة أعمال أدبية عربية، مثل "ملحمة عنترة"، وهي من أهم ملاحم العصر الجاهلي. ويؤكد بيرون أهمية هذه الملاحم التاريخية السابقة على الإسلام وثرائها التاريخي والحضاري، كما تحدث عن الشعر المصري وعن شعراء مصر، نافياً تأخُّر الأدب والشعر بها قائلاً: «... لا تصدقوا أنّه لا يوجد شعراء، فهنا على العكس يوجد البعض، وقد التقيت أحدهم، وهو الشيخ علي درويش، وقد استمعت إلى بعض من شعره، وأعتقد أنه أفضلهم، بل أفضل شعراء العصر الراهن على الإطلاق؛ لفصاحته وقوة بديهته وجمال شعره...».

إن بيرون أحد أعلام المستشرقين الذين لم تُسلَّط عليهم الأضواء من قبل، لذلك، فإنه على الرغم من قلة المعلومات عنه في المراجع، فإننا عثرنا على كنوز من أعمال هذا الرجل المنشور بعضها بالفرنسية وبعضها الآخر بالعربية بين مصر وفرنسا. وقد منحَنا كــلٌّ من "يعقوب أرتين" في تقديمه لرسائل بيرون الفرنسية إلى صديقه جول مول، والدكتور جمال الدين الشيال في كتاباته عن بيرون - مع بعض الدراسات الأخرى لباحثين آخرين - مادةً خصبة للدراسة أفدنا منها في هذا الكتاب، وقد أثبتنا نصوصاً منها ليطالعها القارئ الكريم، مع بعض نصوص نيكولا بيرون التي اقتطفناها من كتبه وقمنا بترجمتها إلى العربية ليتعرف القارئ العربي فكر هذا المستعرب الفرنسي ورؤيته للثقافة العربية وللمجتمعات العربية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كما قمنا بترجمة كافة آراء النقاد الفرنسيين فيه وفى كتاباته التى أوردناها فى هذا العمل. وأخيراً أثبتنا في آخر الكتاب قائمة بمؤلفات بيرون ومقالاته وترجماته المنشورة، وقائمة أخرى بالمصادر والمراجع العربية والفرنسية التي رجعنا إليها وأفدنا منها في دراستنا لحياة وأعمال هذا المستشرق الفرنسي الكبير.

هذا، وبالله التوفيق

# نيكولا بيرون
# حياته وتكوينه المعرفي
# وتجاربه العملية والعلمية

ولد نيكولا بيرون (1798 – 1876) في باريس عام 1798، وفقد والديه متأثرين بوباء التيفوس بينما كان يدرس بمدرسة لانجر Langres الثانوية ما اضطره للعمل كمساعد في مدرسة داخلية بباريس حتى يتسنى له استكمال دراسته في مجال الإنسانيات والحصول بعد ذلك على بكالوريوس العلوم. ثم عمل معيداً بمدرسة لويس الكبير Louis de Grand حيث زامل شباب خريجى كليات اللغات، ولكن في أعقاب قمع حركة تمرد قام بها التلاميذ تحول بيرون إلى مدرس خاص وتابع دراسته في مجال الطب وحصل على بكالوريوس الطب، كما تابع في الوقت نفسه الدراسة بمدرسة اللغات الشرقية وتتلمذ بصفة خاصة على يد المستشرق الفرنسي الكبير آرمان بيير كوسين دي برسفال Armand- Pierre Caussin de Perceval (1795 – 1871)، وعمل أستاذاً للغة العربية الحديثة بالمدرسة العليا للغات الشرقية، ثم أستاذاً للغة العربية بالكوليج دي فرانس، وانتُخب عضوا في مجمع النقوش والفنون الجميلة. وتعرف نيكولا بيرون في أثناء الدراسة إلى يوساب دي سال Eusèbe de Salles، وهو طبيب مستشرق وارتبط معه بعلاقة صداقة طويلة لتشابه مسارهما العلمي والعملى.

واعتباراً من نحو عام 1825 درس بيرون اللغة العربية وانضم في الوقت ذاته إلى الحركة السان سيمونية، وظل مرتبطاً بالأب أنفانتان وبعائلة السان سيمونية حتى نهاية حياته. ودخل بيرون في الأوساط الليبرالية والسان سيمونية ودُعي لتقديم "صورة تاريخية عن العلوم الفلسفية والأخلاقية" في الموسوعة المحمولة التي نُشرت تحت إشراف بالي دو مرليو Bailly de Merlieux عام 1829، ونشر عام 1832 مختصر قواعد اللغة العربية العامية لينتفع به العمال المجتهدون الراغبون في دراسة اللغة العربية سواء للعمل أو بهدف السفر إلى الشرق أو إلى الجزائر بعد وقوعها تحت الاحتلال الفرنسي، وأكمل هذا العمل بدروس في التاريخ "عن مصر" ألقاها في إطار الجمعية الحرة لتعليم الشعوب.

رحل نيكولا بيرون إلى مصر بعد اعتبار جماعة السان سيمونيين جماعة خارجة على القانون في فرنسا، ففي عام 1833 عندما أراد محمد علي والي مصر إنشاء مدرسة للطب قرر تكليف كلوت بك بتنظيمها وإدارتها ما دعاه للسفر إلى باريس لاختيار صفوة من العاملين لتدريس هذا العلم الجديد، وعندما كان كلوت بك في زيارة للمطبعة الملكية بباريس نما إلى علمه وجود مترجم متميز واستثنائي، هو الدكتور نيكولا بيرون، ما دفع كلوت بك إلى لقائه وقال له: "سيدي عندما يتقن شخص العربية مثلك فمكانه يكون في مصر وليس فرنسا"، وقبل بيرون العرض وانتقل إلى مدرسة الطب بأبي زعبل حيث قام بتدريس الكيمياء والفيزياء، وارتبط بالسان سيمونيين "رفاق المرأة" الذين وصلوا

إلى مصر عام 1833 وشاركهم مشروعهم الخاص بالغزو السلمي عن طريق القوة الصناعية والتجارية.

استمر بيرون في تدريس مادتي الفيزياء والكيمياء في مدرسة الطب بأبي زعبل وبعد انتقالها إلى قصر العيني، وفي عام 1839 أصبح مديراً لها لمدة ست سنوات، وفي عام 1845 أنعم عليه محمد علي باشا برتبة قائمقام. عمل بيرون في مجال نشر الكتب العلمية باللغة العربية (دراسة في علم الفيزياء ودراسة في علم الكيمياء الطبيعية وترجمة لكنوز الصحة Trésors de la santé لكلوت بك)، وذلك بالتعاون مع يوحنا عنحوري المترجم السوري ومحمد شافعي ومحمد عمر التونسي، وذلك في الفترة بين عامي 1838 و1845. وامتد نشاطه العلمي والثقافي إلى آفاق أرحب فطلب من الشيخ محمد عمر التونسي كتابة مذكرات رحلته إلى السودان وترجمها إلى اللغة الفرنسية عام 1845 تحت عنوان "رحلة إلى السودان الشرقية، دارفور" وقدم جومار Jomard (1777 – 1862) لهذه الترجمة. كما ترجم للشيخ التونسي "رحلة إلى واداد" عام 1851. ونشر النص العربي لدارفور؛ والذي يعد وثيقة فريدة وثرية، عام 1850 للاستخدام المدرسي.

وفي عام 1838 أصبح بيرون عضواً بالجمعية الآسيوية ونشر في جريدتها المعروفة باسم "الجريدة الآسيوية" رسائله وأعماله، مثل "مذكرات حول عصر الجاهلية" لوضع لبنات تأريخ لهذه الحقبة، وكان مع فرينل Fresnel من أهم محرري الجريدة، ونشر فيها عمله حول "تاريخ العرب قبل الإسلام" Histoire des

arabes avant l'islamisme حيث يدعم بحثه بمشروع طموح لإعادة تكوين نشأة الشعوب العربية. وكان لبيرون مراسلات مستمرة مع جول مول Jules Mohl وصف فيها وضع المدارس والطباعة في مصر، وكان يسأل عن إمكانية حصوله على كرسي بالجامعة في فرنسا بيد أن هذا الحلم تحطم بعد وفاة سيلفستر دو ساسي Silvestre de Sacy (1758 – 1838) عميد الاستشراق الفرنسي. وكان بيرون في القاهرة من بين مؤسسي «الجمعية المصرية»[1]، وكان أحد العلماء الأوروبيين الذين يستقبلون الفنانين والرحالة كما أشار إلى ذلك الأديب والرحالة الفرنسي جيرار دي نرفال (1808– 1855) في أثناء رحلته إلى مصر عام 1843.

وفي نهاية عام 1846 استقال بيرون من منصبه مديراً لمدرسة الطب وعاد إلى فرنسا، وأقام في باريس ثماني سنوات، وكان يحدوه الأمل بوضعه على رأس مدرسة ثانوية عربية كان من المفترض تأسيسها لاستقبال الشباب الجزائريين، وبعد مواجهة منافسه رينو Reinaud وبفضل دعم كاريت Carette نجح في الانضمام إلى الاستكشاف العلمي للجزائر لمراجعة دراسة عن الفقه المالكي لسيدي خليل (6 أجزاء من 1848– 1854)، حيث قام باختصار النص وإعادة تنظيمه في أسلوب بعيد عن لغة

(1) الجمعيّة المصريّة، والمعروفة أيضاً باسم "الجمعيّة الأدبيّة في مصر": تأسّست هذه الجمعيّة في عام 1842 وضمّت قرابة مائة عضو، وقد آلت ملكية هذه المكتبة الآن إلى مكتبة المعهد الفرنسيّ للآثار الشّرقيّة (IFAO) في القاهرة. راجع:
https://heritage.bnf.fr/bibliothequesorient/ar/nerval-art-ara

الشريعة ليعرف بصورة أكبر "المؤسسات الاجتماعية" للإسلام، وكانت تختمر لديه – بعد فترة من الوقت – فكرة صياغة "قانون فرنسي إسلامي"، واصطدم هذا المشروع بالحذر الذي أظهره قادة السان سيمونيين، ولا سيما أوربان Urbain، واستكمل هذا العمل وترجم "ميزان الشريعة" للشعرانى.

وللأسف، لم يجد بيرون موقعاً مناسباً له في فرنسا وشعر بمرارة من فشل الجمهورية فعاد إلى مصر في أواخر عام 1853 وعمل طبيباً صحيًّا حُرًّا في الإسكندرية، وكان قد شرع في ترجمة كتاب ***الناصرى في البيطرة والزردقة*** عام 1852 وانتهى من ترجمته في ثلاثة أجزاء عام 1860.

وعندما أرادت فرنسا إنشاء الكوليج الفرنسي العربي سنة 1857م في الجزائر العاصمة، ولم يكن الأمر قد استقر حول اختيار مدير لهذه المؤسسة، سأل الحاكم العام المتخصصين وأصحاب الكفاءة عن الشخص الذي يمكن توليه هذه المهمة فكان الإجماع على نيكولا بيرون بوصفه أقوى مستعرب، فتم نقله من وظيفة طبيب صحة وتعيينه مديراً للمعهد الجديد، وكانت مهمة المعهد تكوين نخبة جزائرية مثقفة باللغتين العربية والفرنسية في إطار الاندماج الثقافي، وكان تلاميذ المعهد من العائلات المتعاونة مع الفرنسيين، وأسس نيكولا بيرون والمهندس بريس دافين Prisse d'Avennes "الصحيفة الشرقية والجزائرية" Revue Orientale et algérienne التى أصبحت نقطة التقاء المستشرقين السان سيمونيين بالجزائريين المنحازين للغة العربية، وعاش بيرون هناك بعد وفاة زوجته

بصحبة ابن أخته وابنه بالتبني المترجم العسكري ألفريد كليرك Alfred Leclerc (1843 – 1915). وفي عام 1863 كان الكوليج يضم 155 تلميذاً من بينهم 104 من الجزائريين، وتحمس بيرون لكتابة عمل يربط الشعبين ويسمح بتبادل تعليم اللغتين بطريقة مباشرة. وفي 16 يونيو 1865 صدر مرسوم ببناء منشأتين أخريَين في وهران وقسنطينة، وتم افتتاح كوليج قسنطينة في الأول من يناير 1867، وكان يضم 112 تلميذاً من بينهم 108 من الجزائريين. والجدير بالذكر أن استعمار فرنسا للجزائر كان مصحوباً بجهد مكثف لمعرفة المجتمع الجزائري عن طريق العسكريين والإداريين في البداية، ثم عن طريق الجامعيين في نهاية القرن التاسع عشر.

وترك بيرون إدارة كوليج الجزائر العاصمة لشربونو Cherbouneau بعد ترقيته لمنصب مفتش منشآت التعليم العام المفتوح للسكان الأصليين، وظل يشغل هذا المنصب ويُمضي وقته بين الجزائر العاصمة وباريس، وفي عام 1870–1871 انقطع في باريس بسبب الحصار الذي استمر من 19 سبتمبر 1870 إلى 28 يناير 1871 والناجم عن هزيمة فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية. وكان بيرون – بلا شك – يعاني من تنامي التوجه الاستعماري المناهض للعرب الذي بات واضحاً في الجزائر فانسحب إلى ضواحي باريس بضاحية فونتينيه أوروز Fontenay- aux-Roses بعد أن طلب الإحالة إلى المعاش عام 1872، وكان يُمضي أوقات فراغه في زراعة أشجار الورد بحديقته، وتوفي بهذه الضاحية في الحادي عشر من يناير 1876 حيث عانى من البرد القارس في شتاء ذلك العام، وهو الذي كان قد أمضى غالبية حياته تحت شمس إفريقية الدافئة.

تميز بيرون بشخصيته المرحة، وترك أعمالاً هامة بوصفه ناقلاً وجسراً بين العالم العربي وأوروبا، فقد كان يتمتع بحس متفرد للحوار وتبادل المعرفة؛ وقد أسهم في تأسيس الحياة العلمية الحديثة في مصر وفي ذات الوقت اكتشف النصوص التي تسمح للأوربيين بمعرفة تقاليد وعقلية العرب وترجمها وأعاد تشكيلها، وشارك في بث صورة شرق مثير عن طريق مواءمة القصص الشعبية التي نشرها في كتاب مصور ("أساطير شرقية"، 1850)، وفي الصحيفة الشرقية والجزائرية ("قصص عربية"، 1852)، حتى وإن كانت رواية الفروسية العربية التي نشرها عام 1862 "سيف التيجان" لم تلق النجاح المتوقع. ومع ذلك، فإن حكمه على الإسلام كان قاسياً؛ ففي كتابه "نساء العرب قبل الإسلام وبعده" (1858) كان متأثراً بالقصص المأخوذة عن كتاب الأغاني للأصفهاني، وقال: إن الإسلام قلل من الوضع الفكري والنفسي للمرأة إذ أولى أعظم مكانة للحرب وقدم العنف على التأمل والتسامح. وفي كتابه "الإسلام: المؤسسة والتأثير والمستقبل" الذي كتبه عام 1865 لمشروع موسوعة لم تتحقق ونُشر عام 1877، رأى في الإسلام توحيداً عقيماً وجاهلية! وكان يرى أن المسيحية ديانة متعددة الآلهة ووضع كل أمله في البهائية، ومع ذلك، فإن أعماله ليس فيها أى عداء تجاه الشعوب التي تعيش في العالم العربي الإسلامي لأن الدين لم يتمكن من القضاء على القوى الحية للشعر التي يريد بيرون انبعاثها بتفاؤل لا ينهزم.

# نيكولا بيرون والسان سيمونيون

بدأت أوروبا منذ عصر النهضة تؤسس القواعد البنيوية لمشروع اقتصادي اجتماعي ذي نزعة كونية، وهو مشروع نظام اجتماعي يستند إلى مقومات العلم والمبادرة والاستغلال والهيمنة، ويعتمد بشكل أساسي على التصنيع الذي شهد تطوراً ملحوظاً في بدايات القرن التاسع عشر ولاسيما في إنجلترا وفرنسا، وكان المفكر الفرنسي سان سيمون (1760 - 1825) يرى فيه عملية متكاملة تستهدف تغييراً اجتماعياً شاملاً للمجتمع بواسطة خلق نظام اجتماعي جديد يعتمد على العلماء ورجال الصناعة بدلاً من النبلاء ورجال الدين، وعليه فإن كلمة الصناعيين تعني بالنسبة إليه كافة المنتجين سواء كانوا مزارعين، أو ملاك أراض، أو أصحاب مصارف؛ وذلك خلافاً للعاطلين من أرستقراطية النظام القديم وطبقة الجند، وفي هذا النظام يحل العلم محل الدين، والجمهورية محل الملكية، والعالمية محل القومية والوطنية اللاعقلانية، والوضعية مكان الميتافيزيقا، وتنتفي المِلْكية الوراثية واستغلال الإنسان وترث الدولة أدوات الإنتاج بوصفها رابطة للعاملين.

وهكذا تحددت رؤية سان سيمون في تعليم قومي تقوم به المدرسة متعددة الفنون، وهي مدرسة الهندسة العسكرية L'école Polytechnique التي أسسها بونابرت لتعليم الشعب

قواعد النظام الجديد، وميزانية يوافق عليها الصناعيون مع إلغاء ألقاب النبالة وإعادة تنظيم الحرس القومي وانتخاب الضباط عن طريق الجنود. وبدأ سان سيمون بنفسه فتنازل عن لقب "كونت".

بيد أن أتباع سان سيمون اختلفوا في تفسير أفكاره بعد وفاته في 19 مايو 1825، وتعددت وتباينت نزعاتهم ما بين اشتراكيين، وخبراء فنيين، وممولين، وصناعيين. ولكن، في نهاية المطاف عُدَّ مذهب السان السيمونيين مذهباً اشتراكياً يدعو إلى إلغاء الميراث ويرى أن انتقال الثروة يجب عدم تقييده بالعائلة وإنما يجب أن تؤول هذه الثروة بعد وفاة صاحبها إلى الدولة. ويدعو أنصار هذا المذهب إلى أن تتولى الدولة تنظيم الإنتاج وتعهد به إلى المقتدرين لمصلحة المجموع العام، وأن تعهد إلى كل شخص من العمل ما يتناسب مع درجة كفاءته وتقيم هذه الكفاءة بالقدر المنتج من العمل. ويجب أن تؤول السلطة إلى الصناعيين لا العلماء لأنهم هم الرؤساء الحقيقيون للشعب، فهم الذين يقودونه في أعماله اليومية، فالأمة هي ورشة صناعية واسعة، تزول فيها فروق المولد والنسب، وتبقى اختلافات القدرات. وكان من أهم أركان الفلسفة الاجتماعية لهذه الحركة: العمل الصناعي المنتج بمعناه الواسع الذي يشمل العمل التجاري والزراعي والصناعي بل والفكري أيضاً؛ فهم يرون أن الصناعة وحدة يرتبط جميع أفرادها بالمصالح المشتركة للإنتاج وبحاجتهم جميعاً إلى الأمن والحرية في المبادلات، فالمنتجون في كافة الطبقات ومن جميع البلدان هم بالضرورة أصدقاء ولا شيء يمكن أن يعترض توحدهم.

وفي اليوم التالى لوفاة سان سيمون انضم بارتلمى بروسبيد أنفانتان B.P. Enfantin (1796 – 1864) إلى الجماعة وجرى اختياره مرشداً لها عام 1831 ليضيف إلى الأهداف التي حددها سان سيمون أفكاراً عن "رد اعتبار الجسد" والاتجاه نحو الكهنوتية، واتخذ مع أتباعه صومعة في أحد أحياء باريس وهو حى منليمونتان Ménilmontant وخلع عليهم ملامح خاصة، مثل الثياب الغريبة وتقديم المحاضرات المذهبية والدروس العقائدية والعروض المسرحية والأناشيد والتدريب على العمل وزراعة الأرض بأنفسهم والاستغناء عن الخدم، وبطريقة مجملة أسبغ أنفانتان على المذهب مسحة دينية وطقوساً صوفية أطلق عليها "القانون الحي" La loi vivante ما دعا أتباعه إلى تلقيبه بـ"الأب" أو "مسيح الجمهورية الجديدة"، ونجح أنفانتان في ضم عدد كبير من خريجى مدرسة الهندسة العسكرية التي رأى فيها المصدر القادر على إثراء السان سيمونية ويحقق مشروعاتها العالمية.

وكان من الطبيعى أن تتسبب هذه الأفكار في ازدياد غضب الحكومة الفرنسية، وزاد في السخط عليهم إثارتهم لرجال الدين بإعلائهم من شأن الجسد الذي تحتقره الكاثوليكية وتطلعهم إلى تولّى الحكم في فرنسا، ولهذه الأسباب أخذت الحكومة في مطاردتهم وقدمت أنفانتان مع أربعة من أتباعه إلى محكمة الجنايات في أغسطس 1832 بتهمة إثارة الرأى العام والقيام بأعمال تخل بالأخلاق والقيم وتهدد النظام. ومع مظاهر الفشل ووطأة الاضطهاد بدأ تفكيرهم في الهجرة في محاولة للتعويض

وتحقيق شعاراتهم عن استثمار المعمورة والتعاون الدولى، وبعد التفكير في السفر إلى القارة الأمريكية الجديدة لحفر القناة، التي عُرفت بعد ذلك بقناة بنما، استقر عزمهم في نهاية المطاف على الرحيل إلى الشرق حيث يمكنهم تنفيذ أكبر مشروعاتهم، وهو حفر قناة في مصر تصل البحرين المتوسط والأحمر وإنجاز البحر الإفريقي الداخلي بين تونس والجزائر واستخراج الذهب من مدفونات السودان. ولكن بالنسبة لأنفانتان فإن "الشرق الغامض كلغز الصحراء هي كلمة ساحرة مليئة بالضوء والسر، والشرق معناه مصر، مصر الساحرة أرض فرعون وموسى والنيل"[1]. ومما شجع السان سيمونيين على اتخاذ مصر مركزاً لنشاطهم في الشرق إعجابهم بالإصلاحات التي نفذها محمد علي حيث يملك في يده وحده مقاليد الاقتصاد في النظام الجديد الذي أدخله في مجال تكوين الجيش والصناعة والتعليم، والذي كان قريباً - إلى حد كبير- من أفكارهم حول الإصلاح والتحديث، وقد رحبت الحكومة الفرنسية برحيل السان سيمونيين وشجع مسؤولوها السفن التجارية على نقلهم إلى الشرق. وهكذا سيطر الشرق، متمثلاً في مصر ولاسيما السويس، على فكر السان سيمونيين بواسطة ما أطلقوا عليه "حملة فرنسا الفكرية الثانية" بعد حملة بونابرت العسكرية وكاستمرار لجهد الجماعة العلمية التي صحبت هذه الحملة.

---

(1) إدوارد سعيد: الاستشراق – المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عنانى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة 2006 : ص 248.

سافر السان سيمونيون بقيادة أنفانتان إلى الشرق يحدوهم أمل لا حدود له مرتدين زيًّا موحّداً مكوّناً من سروال أبيض بلون الحب وصديرية حمراء بلون العمل وقميص ذي ياقة مرتفعة من اللون الأزرق المائل إلى البنفسجي وهو لون الإيمان. ودون إضاعة للوقت، وفور وصولهم إلى الإسكندرية في 23 أكتوبر 1833، اتجه الأب أنفانتان إلى القاهرة مع أفضل مهندسيه شارل لامبير وهنري فورنيل وقدمهم القنصل العام الفرنسي جان فرانسوا ميمو إلى محمد علي باشا، وحاول السان سيمونيون إقناع الباشا بالبدء في حفر قناة السويس بوصفها أحد أهم أحلامهم لكن دون جدوى. ويرجع سبب رغبتهم في تنفيذ هذا المشروع إلى أن فلسفتهم تقوم على أن العداوات بين الدول تعود إلى سوء الفهم بين الشعوب وعدم الاتصال فيما بينها، ويكمن الحل لهذه المشاكل في أمرين، هما الإنتاج الصناعي ووسائل المواصلات؛ لذا كانوا يعتبرون أن قناة السويس ستصل بين شرق العالم وغربه وستقضي على جزء كبير من الخلافات الدولية.

وعند وصولهم لم ينشغل محمد علي بأفكارهم وإنما نظر إليهم بوصفهم تقنيين واستُقبلوا بصورة طيبة من قبل مستشاريه الفرنسيين، وكان نائب القنصل الفرنسي الشاب فرديناند دليسبس مبهوراً بآرائهم، وتحفّظ القنصل العام لتحذير حكومته منهم، وفي المقابل رحبت بهم السلطات المحلية بأمر من الباشا محمد علي لقدرتهم على خدمة أغراضه في التأثير على الرأي العام الأوروبي لتحسين صورته كحاكم مستنير وفرصته في إرغام الدولة العثمانية على منحه حكماً وراثيًّا لمصر.

وكان السان سيمونيون يعتبرون شق قناتي بنما والسويس من أهم المشروعات التي تجسد أيديولوجيتهم "الإنسانية العالمية"، وكانت قناة السويس بمثابة انتزاع لدور فاعل ضمن إطار السيطرة الخارجية للدولة الفرنسية، وذلك بوصفهم "رسل الحضارة الأوروبية" لاستعمار الغرب للشرق بصورة سلمية. وجرت محاولات لإقناع محمد علي لتنفيذ المشروع لكنه كان في ذلك الوقت يبحث في مشروعات أخرى، مثل بناء سد القناطر ومد سكة حديد بين القاهرة والسويس كبديل عن القناة والسكة الحديد لاعتقاده بأنهما سيزيدان من مطامع الدول الأوروبية في مصر، ومع ذلك قبل السان سيمونيون المشاركة في تنفيذ مشروعات أخرى فربما تسنح الفرصة في المستقبل لتحقيق المشروع الذي كان حلمهم وهو قناة السويس. وشملت جهود السان سيمونيين أعمالاً عدة تسمح لهم بالسيطرة على جميع وسائل الإنتاج في مصر، مثل إقامة مدرسة للهندسة، وتولّي أمر السكك الحديد، وبناء الطرق والجسور، والتنقيب عن المعادن، وشق نفق شبرا، والمساعدة على إنشاء صناعات كيماوية جديدة، وتحسين وسائل الري.

وشملت إنجازاتهم العديد من المشروعات، منها إنشاء 29 مصنعاً عام 1835 وحده، ومثّل التعليم المجال المفضل لممارسة نشاطهم فأقاموا العديد من المدارس العسكرية والمدنية واحتفظوا لأنفسهم بالإشراف عليها، واقترح أنفانتان ولامبير على الوالي محمد علي تكوين "المجلس الأعلى للتعليم العمومي" و"اللجنة الاستشارية للعلوم والفنون"، وأُوكل إلى لامبير وضع المناهج

التعليمية في إطار الإصلاح الذي شمل نظام التعليم، وتضمنت هذه المناهج -بحكم إشرافه عليها- جوانب فنية واقتصادية تتعلق بالمذهب السان سيموني ونشر اللغة الفرنسية في كافة المدارس المهنية، حتى شاع بين المسئولين القول بأنه من العبث إرسال بعثات إلى فرنسا، بينما تحتشد مصر بأساتذة من السان سيمونيين يفوقون نظراءهم في فرنسا كفاءة وخبرة"[1].

وهكذا تغلغل السان سيمونيون في كثير من نواحى الحياة، ونجح الفنانون منهم في إنشاء مدرسة للرسم بالجيزة تقوم على مبدأ الحرية الفنية، وأشاعوا شعوراً عاماً بأهمية الفن والألوان كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقي والاجتماعي، واهتم السان سيمونيون بتوجيه الإنتاج توجيهاً يرقى بمستوى العامل الفكري والأخلاقي، وساهموا في إقامة المدارس العليا في مصر، وحاولوا أن يوجهوا التربية وجهة اجتماعية باعتبار أن الهيئة الاجتماعية لا يمكن أن يتحقق لها الاستقرار والدوام دون قانون عام يحدد لأعضائها موضوع نشاط مشترك، فالحياة الفردية ليست إلا جانباً من جوانب الحياة الاجتماعية.

وقد جاء الدكتور نيكولا بيرون إلى مصر في أول الأمر ليعمل بمدرسة الطب بأبي زعبل عندما كان كلوت بك مديرها، ثم أصبح هو مديرها لسنوات عدة كما ذكرنا سابقاً، ويُعَدّ تأسيس

---

(1) د. طلعت عيسى: أتباع سان سيمون – فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر، مطبعة جامعة القاهرة، 1963: ص 12.

طب فرنسي – عربي أحد إنجازاته بصورة كبيرة من خلال عمله بالتدريس في مدرسة الطب أولاً ثم مديراً لها بعد ذلك. وكانت مدرسة الطب المصرية قد تأسست في أبى زعبل عام 1826، وهي أقدم المدارس العالية بمصر لأن الغرض الأصلي منها عسكري، ثم نقلها كلوت بك إلى قصر العيني عام 1837، وظلت مدرسة الطب المصرية وحيدة في العالم العربي نحو 40 سنة حتى أُنشئت الكلية الأمريكية في بيروت، وقد بدأ التدريس في مدرسة الطب المصرية بأساتذة فرنسيين يشرحون الدروس للتلاميذ مع وجود مترجم ينقلها لهم بالعربية شفهياً، وكانت الدراسة بها خمس سنوات، وكانت أول بعثة طبية سنة 1832 حيث اختار كلوت بك 12 تلميذاً ممن أنهوا دراستهم في مدرسة الطب وصحبهم إلى فرنسا وامتُحنوا بحضور الجمعية العلمية الطبية؛ ومن هؤلاء التلاميذ: محمد الشافعي – أحمد الرشيدي – محمد علي النقلي – إبراهيم النبراوي. وأنشأ محمد علي مطبعة، في أبي زعبل لطباعة الكتب الطبية العربية وطُبع عشرة كتب طبية في هذه المطبعة منها كتاب "القول الصريح في علم التشريح" تأليف كلوت بك- طُبع عام 1832، وهو أول كتاب طبي طبع في هذه المطبعة، وآخر كتاب طبع فيها كتاب "الأربطة الجراحية" تأليف إبراهيم (بك) النبراوي- طبع عام 1838، وكان رؤساء أو نظار مدرسة الطب على التوالي، هم: الدكتور كلوت بك (1827)، والدكتور دفنو بك (1837)، والدكتور بيرون (1839)، والدكتور محمد شافعي أفندي (1847)،

والدكتور راير (1856)، والدكتور حسن أفندي عارف (1859)[1].

وكان الدكتور بيرون يتابع –إلى جانب عمله في مدرسة الطب– تعلُّمه للعربية وإتقانها، وقد كتب عن مصر ودينها وثقافتها فكان أحد أوائل الملتزمين في كتيبة الرجال المستنيرين الذين ساندوا مبادرات مصر الحضارية بقيادة محمد علي. ولم يدرس بيرون الشرق بوصفه عالماً فحسب، ولكنه آمن بالشرق وحلم بتجديده، وقد عاش منفتحاً على الآخر واهتم بالحياة في الشرق من كافة جوانبها، وانخرط داخل المجتمع وحاول سبر أغواره والبحث في عاداته وتقاليده مبدياً شغفاً وحُبَّ اطلاعٍ كبيرين، ودرس الدين الإسلامي وحلله، وجسد معنى التثاقف بين الشرق والغرب من خلال احترام الآخر الشرقي والبحث في خصوصياته الاجتماعية والثقافية. واشتُهر بيرون بشغفه بجمع أخبار التواريخ والآداب العربية إضافة إلى ترجمة عدة أعمال عربية من ملاحم وكتب رحلات، واتجه إلى كتابة وتأليف المعاجم، وسوف نستعرض هذين المجالين لإنتاج بيرون اللذين أسهما في اضطلاعه بدور القناة الواصلة بين الشرق والغرب؛ فلم تكن الغاية وصف الآخر؛ بل قراءة الأنا في مرآته وهذا ما سنعرضه في الفصل الخاص بإنتاجه الفكري من خلال وصف نشاط بيرون وأعماله بوصفه كاتباً ومترجماً.

---

(1) راجع: أحمد عزت عبدالكريم: تاريخ التعليم في عصر محمد علي – مكتبة النهضة المصرية 1938، وجمال الدين الشيال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربي، القاهرة 1951.

## نشاط نيكولا بيرون العلمي وإنتاجه الفكري

كما ذكرنا آنفاً، فقد تخير الدكتور كلوت بك نخبة من أطباء أوروبا وعلمائها للتدريس في مدرسة الطب المصرية، وكان من أبرزهم الدكتور نيكولا بيرون الكيماوي والمترجم المعروف وذلك لتدريس مادتى الكيمياء والطبيعة.

وفي البداية تغلب كلوت بك على مشكلة جهل هؤلاء الأساتذة باللغة العربية وجهل التلاميذ بالفرنسية باستخدام مترجمين للنقل عن الأساتذة وترجمة الكتب، بيد أن الدكتور بيرون نجح في التغلب على هذه المشكلة بفضل دراسته المسبقة للغة العربية فاستعان، في بادئ الأمر، بأحد مترجمي المدرسة من السوريين وهو "يوحنا عنحوري"، وبعد سنوات قضاها في البحث والدرس والاتصال ببعض المحررين والمصححين من شيوخ الأزهر وتتلمذه عليهم ترجم بنفسه محاضراته في الكيمياء.

ونظراً لطبيعة تكوينه الفكري وانتمائه لحركة السان سيمونيين لم يكتف نيكولا بيرون بعمله التعليمي والوظيفي ولكنه آمن بالشرق، وأخذ يدرس الحياة والناس والدين والعادات والتقاليد والملابس والثقافة، ووهب وقته للبحث العلمي وللحياة الثقافية قديماً وحديثاً في الشرق بصفة عامة وفى مصر- بطبيعة الحال- بصفة خاصة، وشارك في الربط بين الثقافتين العربية والأوروبية

عن طريق حركة الترجمة والنشر فقام بالترجمة بين اللغات الفرنسية والعربية والإنجليزية، وكانت له آراء ناقدة عن الحياة السياسية والثقافية في مصر في ذلك العصر، وهى آراء لها قيمتها لأنها صادرة عن شخص أجنبي ينظر إلى الأمور من الخارج ويحكم بموضوعيةِ العالمِ. وكان بيرون – بوصفه أحد أتباع حركة السان سيمونيين - مؤمناً بأن الحب هو رابطة الحياة الاجتماعية وعليه تقوم الحياة الاجتماعية كلها، فالفرد لا يعيش إلا من أجل هذا الحب الذي إذا تمكن من تحقيقه شعر بسعادة قصوى، والإنسانية المفككة المتصارعة لا يمكن أن تعيش في سلام وتقدُّم سوى عن طريق الحب والتفاهم وهذا الحب هو ما أطلق عليه السان سيمونيون: "الديانة الجديدة".

وسجل بيرون كافة ملاحظاته وآرائه في خطاباته التي أرسلها في أثناء مقامه في مصر من القاهرة والإسكندرية إلى صديقه المستشرق الشهير جول مول Jules Mohl (1800 – 1876) عضو الجمعية الآسيوية وعضو المجمع الفرنسي في باريس.

وعند قدوم بيرون إلى مصر، بناء على دعوة كلوت بك، ظل يدرس مادتي الطبيعة والكيمياء في مدرسة الطب في أبى زعبل وحتى بعد نقلها إلى قصر العيني، وكان إنشاء طب عربي فرنسي جزءاً من عمله، وقد أدى ذلك العمل ببراعة في مصر وفي الجزائر بعد ذلك، وكان في مدرسة الطب التي تولى نظارتها هيئات مختلفة تعمل بصورة مشتركة لترجمة الكتب الطبية إلى اللغة العربية أهمها هيئة المترجمين وهيئة المصححين، وكانوا جميعاً

من خيرة مشايخ الأزهر المعروفين بدقة البحث والشغف القراءة، ونذكر منهم الشيخ محمد عمر التونسي، والشيخ نصر أبو الوفاء الهوريني، والشيخ أحمد حسن الرشيدي، والشيخ محمد الهراوي، والشيخ سالم عوض القنياتي، والشيخ مصطفى كساب.

## أولاً: في التأليف:

- **الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية**

عُني "بيرون" كمؤلف بالمادتين اللتين كان يدرسهما، وهما الطبيعة (الفيزياء) والكيمياء، فوضع كتابين كبيرين تُرجما إلى اللغة العربية: الكتاب الأول هو ***"الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية"*** الذي ألّفه وألقاه على تلاميذ مدرسة الطب فاستفادوا منه استفادة كبيرة، ولما نُقلت مدرسة الطب إلى قصر العيني وعُيّن "بيرون" ناظراً لها، وكان قد أتقن العربية وأصبح يفهم النكات الأدبية، بحث في القواميس عن الألفاظ الطبية والكيماوية وسعى جاهداً لتنتفع المدرسة بكل ذلك، وبعد طبع الكتاب قام بترجمته بنفسه وأشرف على مراجعته الشيخ محمد الهراوي فراجع ثمانـيَ وخمسين ملزمة، ثم توفي، فأشرف على مراجعة بقية الكتاب أستاذ "بيرون" وصديقه الحميم الشيخ محمد عمر التونسي الذي قال في مقدمة الكتاب: "على أن جُلَ الكتاب كان أُملي عليَّ من قبل ذلك، وصححتُ أكثره بلا مشارك، ولم آل جهداً في تنقيحه والله المستعان، وساعدني في ذلك معرفة مؤلفه

باللغة العربية لأني قابلتُ كل مشكلة معه على أصوله الفرنسية.."[1]، وقد ساعده في هذه المراجعة تلميذ بيرون وخلفه في تدريس الكيمياء بمدرسة الطب الشيخ درويش زيدان والدكتور حسين غانم الرشيدي. والكتاب ضخم يقع في ثلاثة أجزاء عدد صفحات الأول 676، والثاني 494، والثالث 440، وأُلحق بالجزء الأخير ملحقٌ في 119 صفحة أخرى لشرح الآلات الواردة في الكتاب جاء في مقدمته ما يلى: "وبعد، فلما منَّ الله سبحانه وتعالى بإتمام كتاب الكيمياء للماهر في جميع الفنون، ناظر مدرسة الطب البشري الشهير بيرون، وكُلِّفت فيه أعمالاً جمة تحتاج إلى آلات معرفتها مهمة، وكان لم يذكر في الكتاب إلا القليل من أن عليها في الأعمال التعويل، وكان عدم ذكر جميعها في صلب الكتاب مما يحصل به الإطناب... فقصد أن يجمع جميع الأشكال ويجعلها كالذيل ليكون بها الإكمال، ولأجل أن تكون كلها مجموعة من ورقات قليلة لتسهل مراجعتها في المهمات الجليلة، فجمعها في هذه الورقات، ووضحها أتم توضيح كما هو المقصود للمراجعات، وأمرني أن أرتبها على حروف المعجم، لتكون في المراجعة أسهل وأقوم، فامتثلت أمره لما فيه من الفوائد... إلخ". ويسرنا أن نشير هنا إلى أن "بيرون" وتلاميذه مصححي الكتاب قد وُفقوا توفيقاً كبيراً في ترجمة

(1) الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية- تأليف نيكولا بيرون- مطبعة بولاق- ج1- 1258هـ - انظر مقدمة الجزء الأول.

أسماء كثير من هذه الآلات، ففى هذا الملحق أسماء كثيرة من الآلات لا تزال تُستعمل حتى الآن في كتب الكيمياء الحديثة منذ وُفِّقَ هؤلاء الرواد في تخيرها، ومنها: الأنبوبة، الأنبق، البودقة، الجفنة جهاز تعيين الوزن النوعى للهواء والغازات، دورق ولف، المخبار، المرشح ... إلخ[1].

وكان بيرون قد أعد لكل جزء فهرساً خاصاً ولكنه بعد الانتهاء من الكتاب قرر أن يجعل له فهرساً عاماً على غرار الكتب الأوروبية، ويقول الشيخ عمر التونسي: "أما بعد، فإن كتاب الكيمياء الآن وقد تم، ومسك ختامه على المدارس قد عم، وكان قد عُمل لكل جزء منه فهرسة مستقلة،.. وحيث إن أهل أوروبا يجعلون لمثل هذا الكتاب النفيس فهرسة جامعة أمرني مؤلفه أن أتتبع الفهارس الثلاث، وأجعلها فهرسة عامة نافعة اقتداء بأهل أوروبا في مؤلفاتهم.. وأن أرتب الفهرسة المذكورة على أوائل حروف المعجم لتكون لدى المراجعة أسهل وأحكم.. فأجبته إلى ذلك حسب مراده.. إلخ"[2]. وقد تم طبع الجزء الأول في بولاق في سنة 1258، والجزء الثالث في اليوم الخامس من شهر ربيع الأول سنة 1260.

---

(1) الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية- تأليف نيكولا بيرون- مطبعة بولاق – ج3- 1260هـ - انظر هذا الملحق: ص2، 6، 9، 16، 22، 34، 46، 47.

(2) ص68.

- **الأزهار البديعة في علم الطبيعة**

أما الكتاب الثاني فقد عنونه بيرون ***"الأزهار البديعة في علم الطبيعة"*** وقال في مقدمته: "إني لما استُخدمت بمدرسة الطب البشري معلماً للكيمياء من مدة سنتين، وقمت بما وجب عليَّ فيها بما تقر به العين، طُلب مني أن أضم لتعليم علم الكيمياء علم الطبيعة فامتثلت للأمر واقتطعت من روضة كتب هذا الفن كل زهرة بديعة وجمعت هذا الكتاب من أحاسن الفن المذكور.."، ثم يقول: "ثم إني لفهمي بعض الألفاظ العربية تجنبت من الألفاظ الفرنساوية ما يعسر ترجمته إلى العربية، هذا، وقد رتبت هذا الكتاب على جزئين، أولهما في العلوم الطبيعية وثانيهما في الكائنات الجوية.."[1]. وترجم هذا الكتاب يوحنا عنحوري، وأشرف على مراجعته وتحريره الشيخ محمد الهراوي، وطُبع منه ألف نسخة في بولاق سنة 1254؛ أى قبل أن يتم طبع الكتاب السابق بنحو ست سنوات، بيد أن هذا الكتاب كان أول كتاب في هذا التخصص يُترجم إلى اللغة العربية وقد أقبل عليه تلاميذ المدارس "وانكبوا عليه ما بين مطالع ودارس، وهبت عليه من القبول نسمة صبا، فتناهبته الأقطار وبددت نسخه أيادي سبا، واحتيج إلى إحياء مواته ونشر رفاته"[2] فصدر الأمر بطبعه طبعة ثانية في عهد عباس الأول فطُبع في بولاق سنة 1269.

---

(1) الأزهار البديعة في علم الطبيعة- تأليف الدكتور بيرون وترجمة يوحنا عنحورى- مطبعة بولاق – 1835- ص5 و6 من مقدمة الكتاب.

(2) ص3 من مقدمة الطبعة الثانية.

- **نساء العرب قبل الإسلام وبعده**

كما كتب بيرون ***"نساء العرب قبل الإسلام وبعده"*** 1858 Femmes arabes avant et après l'Islam 1858، وقال في مقدمته: "هل كان لنساء العرب منذ اثني عشر أو خمسة عشر قرناً حياة فكرية؟ هل كان لهن تأثير وقيمة وعمل اجتماعي؟ الحق أقول: إن المرأة العربية تحولت تحولاً كبيراً فقد نظم الإسلام وضعها في الأسرة بطريقة واضحة وجادة بيد أن المرأة العربية ما فتئت تخسر المكانة الفكرية والنفسية التي كانت للمرأة الوثنية". والكتاب مجلد ضخم في 611 صفحة، يتناول فيه بيرون التاريخ القصصى والمتعقل للمرأة العربية وطابعها قبل الإسلام وبعده، ويبدأ الكتاب بحكايات العرب عن ملكة سبأ، ثم يتناول بطريقة تاريخية مكانة المرأة في القبائل العربية القديمة وتعليمها وتأثيرها ويصحب كل عرض بشعر وسرد، ثم يتناول ما أدخله الإسلام على وضع المرأة وذلك حتى عصر الخليفة المأمون وتوقف عند هذه الحقبة لأنه يرى أنه اعتباراً من ذلك التاريخ حُرمت المرأة المسلمة من كافة الحقوق، وقد سرد بيرون الأحداث في أسلوب حي وفياض وغزير في أغلب الأحيان ما جعل منه كتاباً تعليمياً يلقي الضوء على جانب مجهول من حياة العرب. ولا يذكر المؤلف مصادره، ويُعتقد أن جزءاً كبيراً من القصص الواردة في الأشعار مأخوذ من كتاب الأغاني للأصفهاني والباقي من بعض تلك الدواوين التي تتناول سمات التقاليد والتي قسمها بصورة عامة إلى فصول يتحدث كل منها عن ميزة أو عيب.

- **الإسلام : مؤسسته وتأثيره ومستقبله**

كتب بيرون ***الإســـلام: مؤسستـــه وتأثيـــره ومستقبله 1877***
L'Islamisme, son institution, son influence et son avenir
Alfred Leclerc 1877، وهو كتاب صغير نُشر بعد وفاة الكاتب ونشره ابن أخته ألفريد لكليرك كبير مترجمي الجيش الفرنسي في الجزائر، وقد أضاف إلى الكتاب شروحاً رآها لازمة لفهم الكتاب، وقد كتب الدكتور بيرون هذا العمل كفصل في موسوعة عن الأديان، بيد أن هذا المشروع أُجهض وبقي هذا الفصل بين أوراق الدكتور بيرون، وبعد وفاته وجده ابن أخته ألفريد لكليرك الذي قرر نشره لأهميته وكونه ثمرة ملاحظات بيرون عن الإسلام وذلك خلال إقامته مدة تزيد على عشرين عاماً في بلاد إسلامية. وعلى الرغم من أن عدد صفحاته قرابة مائة صفحة عرض فيها الكاتب الخطوط العريضة عن تاريخ الإسلام وحاضره ومستقبله فإن الكاتب كان يملك المادة اللازمة لكتابة كتاب ضخم لو لم يكن قد فُرض عليه شكل فصل في موسوعة، والعمل هام ومفيد بالنسبة إلى المعنيين بفلسفة الأديان.

يرى بيرون في هذا الكتاب الصغير أنه بغية معرفة المؤسسات السياسية للمسلمين يتعين دراسة مؤسساتهم الدينية بما أن في كافة البلاد التي يسيطر فيها الإسلام تقوم السياسة الداخلية والخارجية على أساس الإسلام وذلك منذ عهد النبي "محمد" الذي كان يراه بيرون رجل دولة أكثر من كونه نبياً.

ويرى بيرون في الإسلام نوعاً من البروتستانتينية مقابل الديانة المسيحية، ولكنها بروتستانتينية راديكالية ترفض مبدأ الثالوث الذي يعد العقيدة الأساسية للمسيحية، فهو ينفي بذلك ربوبية يسوع، ويرى أن محمداً عمل على كسب المريدين والمعتنقين للديانة الجديدة بترسيخه مبدأ الوحدانية وخلود الروح والعدالة الإلهية وجزاء الآخرة، وجمع الشعوب والقبائل العربية وأعطاها شعوراً بالوحدة غير مسبوق بعد أن كانت شعوباً وقبائل متناحرة تهيم في الصحراء، كما تطرق للقرآن وقارن بين فكرة الألوهية في الديانات الثلاث، وتطرق إلى المقارنة بين الأديان الثلاثة وما أخذه الدين الإسلامي عن اليهودية والمسيحية، ووفاة النبى محمد وظهور الأئمة الأربعة والخلاف بينهم.

وانتقد دور المرأة الذي أصبح – حسب رأيه - ثانويًّا في الإسلام الذي وضعها في المرتبة الثانية بعد الرجل على نقيض مريـــم أم يسوع وآسيا زوجة فرعون، وتحدث في هذا المقام عن وأد الفتيـات وتعدُّد الزوجـــات والسلطة المطلقة لإله واحد ولقائد واحد للبلاد ولزوج داخل الأسرة، وطالب بضرورة تجديد الإسلام والأخذ من المجتمعات الغربية لتطوير المجتمعات العربية الإسلامية، ورأى في حملة بونابرت دفعة جديدة للإسلام وثمَّن دور كل من محمد علي في مصر والسلطان محمود في تركيا.

- **عن مصر – دروس التاريخ**

أصدر بيرون في باريس عام 1832 كتاباً *"عن مصر – دروس التاريخ"* De l'Egypte – leçons d'histoire – Paris 1832، وتدور فكرة هذا العمل حول أهمية وجود علم اجتماعي بغية قيادة العالم، وهذا العلم تم وضعه من خلال تجربة ستة آلاف عام وجموع من الشعوب والدول والأديان والمجتمعات، وفي هذه البانوراما الكبيرة الحية تظهر الممالك والإمبراطوريات والجمهوريات والملكيات والكونفدراليات والدول الصغيرة؛ وذلك كله من أجل الإنسانية، وتستهلك هذه الشعوب قروناً لتتطور وتضطر إلى القيام بثورات ومجازر لتحقيق أهدافها، ولا شيء يمكن أن يوقف مسيرة الإنسانية وتقدمها وتحقيق حلمها في المساواة الطبيعية والحرية والإخاء، وهذه الفكرة الأولى اختمرت منذ بداية المجتمعات في قلب كافة البشر وأثارت جماعات شعوب مصر للاحتجاج على قانون ظالم قسّم الناس إلى طبقات غير متساوية؛ أى طبقات عليا وعبيد؛ ما شكل إهانة للإنسانية في شكل قانون وباسم السماء. وأعطى بيرون مصر القديمة نموذجاً لهذا التطوير، وخلص في النهاية إلى تأملات تاريخية ودروس لكافة الشعوب. ويتناول الكتاب عموميات عن أصل الشعوب، وعن الحضارة أو التنظيم الديني والاجتماعي لمصر والتعديلات التي طرأت على العلم البدائي والتقاليد وقانون التفاصيل والعلوم والفنون والصناعة، وتاريخ الجماعات الشعبية في مصر، وعن ملوك مصر حتى الإسكندر الأكبر، ومصر في عهد الإخشيد

والبطالمة، وتأملات تاريخية في كل ما سبق، وانتهى إلى أنه يتعين أن يكون الناس سواء ولا يكون هناك مزايا وفردية؛ بل يجب أن يكون المجتمع جماعة تحت قيادة فكر أخلاقي أولي. وواضح في هذا الكتاب أن بيرون يعبر عن رؤية تجمع بين خبرته المعرفية بتاريخ المجتمعات وبين أفكار سان سيمون الاجتماعية.

وفضلاً عن هذه الكتب الكبيرة وضع بيرون مجموعة من الرسائل الهامة والدراسات القصيرة نُشرت في دوريات أو كتيبات، وهى عن قصص القرآن وقصص الأساطير، وأطلق عليها أساطير عربية وشرقية، كما عُرف بيرون بشغفه في جمع أخبار التاريخ والآداب العربية، وكان يرى أن دراسة العلوم الإنسانية تؤدي بالإنسان المفكر إلى الإعجاب بأفعال الخالق وإلى إكبار عجائب العالم والعقل الإنساني.

- **يوسف بن يعقوب، أسطورة عربية**

كتب بيرون قصة ***يوسف بن يعقوب، أسطورة عربية Joseph, fils de Jacob, légende arabe***، ونُشرت هذه القصة القصيرة عن يوسف بن يعقوب في مجموعة قصص قصيرة من 354 صفحة في مجلد واحد عام 1853 بباريس. والمعروف أن المسلمين يعتبرون يوسف نبياً ورسولاً إلى أهل مصر وخصِّصت سورة كاملة لسرد قصته، وهي الحالة الوحيدة في القرآن التي تخُصَّص فيها سورة كاملة لسرد قصة نبي. وتوصَف هذه السورة بأنها أفضل القصص. تذكر القصة أن يوسف كان أقرب الأبناء

إلى يعقوب أبيه ومن أجمل البشر، ونتيجة لغيرة إخوته منه فقد رموه في بئر وعادوا إلى أبيهم واتهموا الذئب بأنه أكل يوسف، وعندما مرت قافلة أتى إلى البئر من يجلب لهم الماء فوجدوا يوسف فاحتفظوا به كعبد، وباعوه فيما بعد ليصل إلى عزيز مصر الذي كان من دون أولاد فأخذه هو وامرأته واعتنيا به، ونتيجة لجماله وجاذبيته أغرمت به امرأة عزيز مصر وحاولت إغواءه فرفض، وفي أثناء هروبه انقطع قميصه، وكان وقت عودة العزيز إلى مخدعه، ليجد هذه الصورة فاتهمت زليخا امرأة العزيز يوسف بمحاولة إغوائها ولكن شهادة أحد أقربائها برأت يوسف. وانتشر خبر هذا الحادث بين نساء المدينة فأرادت زليخا أن تُظهر لهن جمال يوسف فدعتهن إلى وليمة وتعمدت إعطاء كل مدعوة سكيناً لتقطيع الفواكه وأمرت يوسف بالدخول عليهن، وعندما وقع بصرهن على يوسف صعقن بجماله وقطّعن أيديهن دون أن يشعرن. وهناك اختلاف واحد واضح بين رواية القرآن ورواية الكتاب المقدس، ففي القرآن لم يحدد اسم الملك بينما ذُكر الفرعون في الكتاب المقدس، وللقصة نفس الأحداث العامة كما سردها الكتاب المقدس، لكن مع اختلافات محددة.

- **أسطورة شرقية : ملكة سبأ**

وكتب بيرون ***أسطورة شرقية : ملكة سبأ, Légende orientale, la Reine de Saba*** ونشرها في دورية الإلوستراسيون Illustration في عددها بتاريخ 23 إلى 30 أغسطس 1850 في باريس. وتقع

في ست عشرة صفحة، وهي سرد لأسطورة بلقيس ملكة مملكة سبأ التي ورد ذكرها في القرآن والكتاب المقدس، وقد وفدت الملكة غير المسماة في النصوص الدينية على الملك سليمان، وأسهب رجال الدين والمفسرون والأخباريون في تفاصيل ذلك اللقاء وغدت مادة خصبة للكتب والروايات. وتعد هذه المرأة مصدر فخر واعتزاز لليمنيين والأثيوبيين، وكان هناك خلاف بين الباحثين حول موقع مملكة هذه الملكة، وادّعت شعوب كثيرة أنها موطن هذه الملكة؛ لكن الأبحاث الأثرية الحديثة أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن مملكة سبأ كانت باليمن وإن لم يُعثر للملكة بلقيس بحد ذاتها على أثر. في نفس الوقت، لا ينفي علماء الآثار وجودها، وإن كان بعضهم يعتقد أنها أسطورة يمنية قديمة وجدت طريقها إلى العهد القديم لوجود تماثيل عديدةٍ لنساء في معبد بران، أو "محرم بلقيس" كما يُسمّيه اليمنيون، واعتقادهم - كونها ذُكرت في العهد القديم وفي القرآن - أنه لا بد أن يكون للقصة سند آثاريٌّ في مكان ما.

- **رسالة عن الشاعرين طرَفة والمتلمس**

نُشرت هذه الرسالة ***رسالة عن الشاعرين طرفة والمتلمس*** ***Lettre sur les poètes Tarafah et Al-Moutalammis*** في "الجريدة الآسيوية" في سلسلتها الثالثة في باريس عام 1841، وتتناول بالدراسة الشاعرين العربيين الجاهليين طرفة والمتلمس وشعرهما وتأثرهما بالبيئة العربية الجاهلية، وتقع الرسالة في

ثمان وستين صفحة. فالمتلمِّس، ولقبه الضُّبَعي، هو شاعر جاهلي واسمه جرير بن عبد المسيح الضبعي، وقيل: جرير بن عبد العزى، من قبيلة ضُبَيْعة بن قيس بـن ثعلبـة، إحدى قبائل بكر بن وائل، وقد عدّه ابن سلام الجُمحى في "طبقات فحول الشعراء" من شعراء الطبقة السابعة لكونه من المقلّين. ومما يعرف عنه أنه كان مولعاً بالصيد كثيراً وغير مبالٍ بالأصنام والأوثان حتى إنه كان يستهزئ بها وبمن يسجد لها؛ لذلك لاقى معاداة من بعض القوم واتهموه بالمس والسحر.. وقد لُقّب بالمتلمّس لبيت من شعره يقول فيه:

**وذاك أوان العرْض حيّ ذبابه  زنابيره والأزرق المتلمّسُ**

وهو خال طرفة بن العبد الشاعر الجاهلي العربي من الطبقة الأولى، من إقليم البحرين التاريخي، وهو مصنف بين شعراء المعلقات. وقيل: اسمه طرَفة بن العبد بن سفيان بن سعد بن مالك بن ضُبيعة، وهو أبو عمرو لُقّب بطَرَفَة، وهو من بني قيس ابن ثعلبة من بني بكر بن وائل، ولد نحو سنة 543م من أبوين شريفين، وكان له من نسبه العالي ما يحقق له هذه الشاعرية؛ فجدُّه وأبوه وعماه المرقشان وخاله المتلمس كلهم شعراء، مات أبوه وهو بعد حدث فكفله أعمامه إلا أنهم أساءوا تربيته وضيقوا عليه وهضموا حقوق أمه، وما كاد طرفة يفتح عينيه على الحياة حتى قذف بذاته في أحضانها يستمتع بملذاتها فلها وسَكِرَ ولعب وبذَّر وأسرف فعاش طفولة مهملة لاهية طريدة، وراح يضرب في البلاد حتى بلغ أطراف جزيرة العرب، ثم عاد إلى قومه يرعى

إبل معبد أخيه، ثم عاد إلى حياة اللهو، وبلغ في تجواله بلاط الحيرة واتصل بالملك عمرو بن هند الذي جعله في ندمائه، ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر عامله على البحرين وعُمان يأمره فيه بقتله، هو وخاله المتلمس، ففتح المتلمس الرسالة فنجا ولم يفتحها طرفة فقُتل.

- **رسالة عن تاريخ العرب قبل الإسلام عن حقبة تُبّع الصغير وحصار المدينة ودخول اليهودية في اليمن**

كتب بيرون "**رسالة عن تاريخ العرب قبل الإسلام عن حقبة تُبّع الصغير وحصار المدينة ودخول اليهودية في اليمن**" Lettre sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme, de l'époque du petit Tobba, du siège de Médine et de l'introduction du judaïsme dans l'Yaman، ونشر هذه الرسالة أيضاً في "الجريدة الآسيوية" في سلسلتها الثالثة، وتتكون من سبع وستين صفحة. وبالطبع، تعكس هذه الرسائل اهتمام بيرون بعقلية العرب وتأثرهم بالإسلام وإضافة الإسلام لهذه المجتمعات وذلك من منظور يهدف إلى نقل هذه المجتمعات، في مشروع عالمى يربطها بالمجتمعات الغربية.

- **المذهب المالكي الإسلامي – دراسة نقدية للترجمة الرسمية لكتاب خليل**

وتحتوي دراسة ***المذهب المالكي الإسلامي – دراسة نقدية للترجمة الرسمية التي قام بها بيرون لكتاب خليل*** ***Droit***

***musulman Malékite*** على حلول لمسائل هامة وتثبت ما يلي:

1- أن مبادئ الشريعة الإسلامية والعقيدة الإسلامية إذا ما فُهمت وطبِّقت بطريقة سليمة لا تتنافى مع التقدم الحضاري للشعوب الإسلامية.

2- أن ذات المبادئ، باستثناء تلك المتعلقة بالطلاق والميراث، لا تتعارض مع تطبيق القانون المدني الفرنسي على عرب الجزائر.

## ثانياً: في الترجمة:

وفضلاً عن هذا الإنتاج الفكري المتميز لبيرون على المستويين العلمي والأدبي الاجتماعي ورغبته في الربط بين المجتمعين الغربي والشرقي كان لبيرون إنتاج ترجمي متميز ما بين اللغات العربية والفرنسية والإنجليزية.

وكان أول كتاب ترجمه بيرون من اللغة الإنجليزية إلى الفرنسية:

- **"صورة تاريخية عن العلوم الفلسفية والأخلاقية منذ نشأتها وحتى يومنا هذا"**

***Tableau historique des sciences philosophiques et morales, depuis leur origine jusqu'à nos jours.***

وهو كتاب علمي، ترجمه بيرون عن الإنجليزية ونُشر عام 1829، ويبلغ مجموع صفحاته ثلاثمائة صفحة، وهو دراسة تاريخية عن الميكانيكا وعلم الماكينات تسبقها مقدمة تاريخية عن الميكانيكا

والهيدروليكا وتتبعها سيرة حياة الكاتب وثبت مرجعي ومسرد. والكتاب مترجم عن "دراسة في الفيزياء وفنون الميكانيكا" لتوماس يانج Thomas Young، وملحق حول سيل السوائل وملخص تاريـخي حول ماكينات البخار للسيد هاشيت M. Hachette ويُعد نص توماس يانج نبذة معدلة لكتاب "دروس حول الفلسفة الطبيعية والفنون الميكانيكية" الذي نُشر عام 1807، والملحق مأخوذ من "دراسة أساسية للماكينات" " Traité élémentaire des machines" المنشور عام 1811 تأليف جان نيكولا بيار هاشيت Jean Nicolas Pierre Hachette، والنبذة التاريخية مأخوذة من "تاريخ ماكينات البخار" "Histoire des machines à vapeur" التي نشرها نفس المؤلف لاحقاً عام 1830.

أما عن الكتب التي ترجمها بيرون من العربية إلى الفرنسية فهى كتب تراثية ودينية، وقد حرص بيرون على ترجمة التراث الديني والأسطوري للعرب بغية إلقاء الضوء على التكوين الوجداني للعرب والشرق ما يسمح للغرب بفهم الشرق وتحقيق مشروع الاندماج والوحدة بينهما.

- **"تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان" تأليف عمر التونسي وترجمها بيرون بعنوان "رحلة إلى دارفور *Voyage au Darfour*"**

ومحمد بن عمر التونسي مولود في مصر عام 1789 من أب تونسى وأم مصرية، وقد نشأ في القاهرة وتلقى دروسه في

الأزهر الشريف ثم سافر إلى دارفور عام 1803. ورحلة التونسي إلى دارفور لم تكن بهدف الاستطلاع والدراسة، ولكن للحاق بوالده وجده اللذين رحلا من قبل وتزوجا من أهلها وأصبح له أخوة وأعمام في السودان حيث عملوا جميعاً بالعلم والتجارة، وكان لهم مصالح تجارية واسعة ومراكز سياسية مرتفعة ومكانة دينية مرموقة؛ فشملت "التونسي" عناية ملوك ووجهاء دارفور ما أتاح له الإلمام بتاريخها وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية ونظمها السياسية وتعرف على العادات والتقاليد ومختلف نواحى الحياة في دارفور. وتعد هذه الدراسة من أهم الدراسات التي تناولت دارفور.

فى مقدمة الكتاب ذكر التونسي سبب تأريخ رحلته إلى دافور حيث قال: ومكثت على ذلك حتى اجتمعت بأبرع أهل زمانه حذاقة وفهماً، وأذكى أهل عصره صناعة وعلماً، معلم الكيميا الحكيم بيرون الفرنساوى، وقرأ على كتاب كليلة ودمنة باللغة العربية، فذكرت له بعض ما عاينته في أسفارى من العجائب البهية، فحملنى على أن أزين وجه الدفتر بإيضاح ما شاهدته من العجائب، وأخبره بما حصل لي في تلك الأسفار من الغرائب، فامتثلت أمره لما له على من اليد البيضا، ورأيت أن ذلك أجمل لي أيضا لقول صاحب "المقصورة" من الرجز: "إنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى" فشرعت في إبراز فرائدها من صدف الأذهان وكشف حجاب خرائدها الحسان إلى العيان، وضممت لذلك من النوادر ما سمعته من الثقات، أو

نقلته من الكتب على سبيل الاستطراد للمناسبات، لتكون هذه الرحلة روضة يانعة الأزهار، لمن تأمل فيها، وحديقة دانية الثمار لمن في إيضاح معانيها تصفح معانيها، ولم آل جهداً للمتأملين، ولم أتعمق في غريب اللغة ليسهل فهمها للسامعين.

وقال عن إعجابه بالسودان: وكنت قبل ذلك سافرت إلى بلاد السودان، ورأيت فيها من العجائب ما إذا سُطِّر يكون كزهر البستان.[1]

وعدد صفحات الكتاب 492 صفحة من القطع الكبير وبه مصور جغرافي، وكتب مقدمته جومار Jomard وطُبعت هذه المقدمة على حدة.

وقد صدرت ترجمة بيرون للعمل في خمس عشرة طبعة بين عامي 1845 و1965 .

- **رحلة إلى واداي تأليف محمد بن عمر التونسي**
  ***Voyage au Ouaday***

وهو كتاب كبير في 756 صفحة ومقدمته في 75 صفحة وبه أيضاً مصور جغرافي وتسع لوحات مصورة، وصدرت ترجمة بيرون له عام 1851، وكتب مقدمته مسيو جومار. والأخبار الواردة في هذه الرحلة صحيحة؛ فعندما سافر محمد بن عمر التونسي إلى دارفور رحّب الحاكم به وسمح لأبيه بالذهاب لرؤية أسرته، فترك الأب أملاكه في يد ابنه. وذهب إلى واداي جنوبي

(1) https://www.marefa.org

الخرطوم وكان يصبو لمنصب رفيع في حاشية سلطانها، وبعث يستدعي ابنه محمداً، فلم يأت؛ فترك أبوه البلد بسبب الحرب الناشبة بين دارفور وواداي ورحل إلى تونس.وأقام محمد في دارفور سبع سنوات، عرف في أثنائها البلاد وأهلها معرفة تامّة، واستطاع أن يكون سفير حاكمها لدى حاكم سابون في واداي، ثم انتقل إليه بعد أن لقي ترحيباً منه، ولكن الحاكم ما لبث أن جفاه إثر وشاية نميت إليه، فغادر محمد واداي، وكان قد لبث فيها ثمانية عشر شهراً، ولحق بقافلة إلى فزّان ثم تابع رحلته إلى طرابلس حتى وصل إلى تونس نحو عام 1228هـ/1813م، ولكنه لم يقم فيها طويلاً إذ عاد إلى القاهرة، والتحق بحملة إبراهيم باشا إلى المورة جنوبي اليونان واعظاً لفرقة مشاة فيها. وقد أخذ بارت Barth عليه أنه لم يذكر في الكتاب شيئاً مضبوطاً عن الأحوال الجغرافية والطبوغرافية والإحصائية والأرصاد الجوية لهذه البلاد.

- **"كتاب المختصر" للفقيه خليل بن إسحق الجندى تحت عنوان *Précis de jurisprudence musulmane ou Principes de la législation musulmane civile et religieuse selon le rite Malékite***

وخليل بن إسحق الجندى، هو فقيه مالكي من أهل مصر، تعلم في مصر وولي الإفتاء على مذهب مالك. ويعد كتاب "المختصر" من أمهات الفقه المالكي، وهو قراءة تجديدية للنص الفقهى، وقد جمع فيه خلاصة فقه المذهب المالكي بطريقة مختصرة جداً. ويعتبر هذا الكتاب وشروحه المعتمد في نقل

أرجح الأقوال التي تم اعتمادها في الفقه المالكي، وقد طُبعت ترجمة بيرون في ثماني طبعات بين عامى 1848 و1854.

- **الطب النبوى *La médecine du Prophète* *تأليف جلال الدين السيوطى،***

يصف الكتاب الأمراض الجسمانية والروحية المذكورة في القرآن وأحاديث الرسول وطرائق علاجها. وقد طُبعت ترجمة بيرون لهذا الكتاب في خمس طبعات ونشرت بين عامي 1860 و1894 والكتاب مأخوذ عن "المجلة الطبية للجزائر".

- **كتاب الميزان، *وترجم بيرون عنوان الكتاب (ميزان الشريعة الإسلامية أو روح الشريعة الإسلامية واختلافات الأربعة) Balance de la loi musulmane, ou, esprit de la législation islamique et divergences de ses quatre rites jurisprudentiels***

كتاب الميزان لعبد الوهاب الشعراني، هو ملخص لمبادئ الشريعة الإسلامية وممارستها. والشعراني هو فقيه وكاتب مصري وفير الإنتاج وزعيم صوفي عاش في مصر في القرن السادس عشر. وبدلاً من التجميع المعتاد لأحكام الشريعة استناداً إلى مذهبٍ أو آخر من مذاهب الفقه الإسلامي الكبرى، فإن كتاب الميزانِ، هو محاولة للتوفيق بين مذاهب الفقه السنية الأربعة، حيث يسلط الضوء على التشابهات بين هذه المذاهب بدلاً من الاختلافات. وتميز أسلوب كتابة الشعراني بمطالعة النفس أو

الاستبطان. يُنظر للشعراني بكثير من التقدير باعتباره مفكراً مجدداً، وكان صوفياً ضليعاً، وأسس طريقــة اتُّبعت مدة قرنين من الزمان. يتألف العمل من مجلدين بفهرسين، وظهرت ترجمة بيرون للعمل في ست طبعات ونشرت عام 1898 .

- **رسالة في الفقه الإسلامى وفقاً للمذهب المالكي *Précis de jurisprudence musulmane, selon le rite Malékite***

من "المختصر" لسيدى خليل مع ملاحظات وفهرس لخليل ابن إسحق الجندي. وهو ملخص من الترجمات الفرنسية لسيدى خليل مع ملاحظات وسيرة بعلم خليل بن إسحق الجندي. وظهرت الترجمة في طبعتين نُشرتا عامى 1848 و1854.

- **كامل الصناعتين المعروف بالناصري في البيطرة والزردقة لأبي بكر بن بدر *Le nâcéri; la perfection des deux arts, ou, Traité complet d'hippologie et d'hippiatrie arabes***

سُمِّى الكتاب بالناصري تكريماً للسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون الذي كَلَّف أبا بكر بن بدر الدين البَيْطار (المتوفي سنة 741هـ/1340م)، والذي كان كبير بياطرة إسطبلاته، بإنجاز هذا العمل. ويتكون الكتاب من عشر "مقالات" قُسِّم كل منها إلى "أبواب" تناقش الكثير من الموضوعات ذات الصلة بالفروسية، مثل صحة الخيول وتربيتها والرياضات المتعلقة بها. وهو مكون من ثلاثة مجلدات، وصدرت ترجمة بيرون في باريس لدى دار نشر هوزار Huzard عام 1851.

وعلى مستوى الترجمة الأدبية نجد اهتمام بيرون بترجمة السير الشعبية التي تشكل وتعكس خيال وفكر الأمة، ومن هذه السير الشعبية ترجم بيرون:

- **رسالة عن عنترة *Lettre sur Antar***

وهي ترجمة لإحدى أهم ملاحم العصر الجاهلي، وتقع في إحدى وخمسين صفحة ونُشرت في "الجريدة الآسيوية" في سلسلتها الثالثة في باريس عام 1841. وتتناول الملحمة قصة عنتر، أو عنترة، الذي وُلد لأب عربي وأمّ حبشية، فجاء مختلفاً عن بقية أقرانه في ضخامة خلقته وصلابة عظامه وشدة منكبيه وطول قامته وشبه خلقته بأبيه شداد. وكانت أمه أميرة حبشية يقال لها زبيبة ررغر، أُسرت في هجمة على قافلتها، وأُعجب بها شداد فأنجب منها عنترة، وكان لعنترة إخوة من أمه عبيد هم جرير وشيبوب. وكان هو عبداً أيضاً لأن العرب كانت لا تعترف ببني الإماء إلا إذا امتازوا على أكفائهم ببطولة أو شاعرية أو سوى ذلك. وقد ذاق عنترة مرارة الحرمان وشظف العيش لأن أباه لم يستلحقه بنسبه، فقد كان أبوه هو سيده، يعاقبه أشد العقاب على ما يقترفه من هنات، وكانت سمية زوجة أبيه تحيك له المكائد. ولم يتخلص عنترة من العبودية إلا عندما أغارت قبيلة طيىء على عبس في ثأر لها، إذ سبق لقبيلة عبس أن غزتها واستاقت إبلها، واشترك عنترة مع بني قومه في ساحة النزال، مدافعاً لا مهاجماً، وسبب ذلك ما روي من أن قومه فرضوا له نصيب العبد من الغنائم ومن ثم تقاعس عن الخوض في المعركة. واشتد الخطب

على بني عبس حتى كادت أن تُسلب خيراتها وتدور عليها الدوائر فطلب منه أبوه المشاركة وأعلن تحريره من العبودية. ومن ناحية أخري أحبّ عنترة ابنة عمه عبلة بنت مالك أعظم الحب وأشده، وكانت من أجمل نساء قومها وأبعدهن صيتاً في اكتمال العقل ونضرة الصبا، ويقال: إنه كان من أقسى ما يعيق هذا الحب صلف أبيها مالك وأنفة أخيها عمرو. تقدم عنترة إلى عمه مالك يخطب ابنته عبلة، ولكنه رفض أن يزوج ابنته من رجل أسود. ويقال: إنه طلب منه تعجيزاً له ألف ناقة من نوق النعمان المعروفة بالعصافير مهراً لابنته، ويقال: إن عنترة خرج في طلب عصافير النعمان حتى يظفر بعبلة، وإنه لقي في سبيلها أهوالاً جساماً، ووقع في الأسر، ثم تحقق حلمه في النهاية وعاد إلى قبيلته ومعه مهر عبلة ألفاً من عصافير الملك النعمان. ولكن عمه عاد يماطله ويكلفه من أمره شططاً، ثم فكر في أن يتخلص منه، فعرض ابنته على فرسان القبائل على أن يكون المهر رأس عنترة. واختلفت الروايات حول نهاية القصة بالزواج أو الفراق.

- **سيف التيجان *Glaive des Couronnes***

وهي قصة من خزانة التراث الجزائرى لبطل في فترة ما قبل الإسلام؛ ومن ثم فالخيال مفتوح. وتنضوي "قصة الملك سيف التيجان" تحت لائحة قصص البطولة الخارقة، وتبدأ بحديث عن عبد الملك بن مروان يضعها في إطار تاريخي، ثم لا يلبث ذلك الإطار أن يتلاشى حين تبدأ القصة في بلاط الملك "شرحبيل"

صاحب بلاد "الباسقات"، وقد جمع وزراءه وأعيان مملكته، يطلب منهم أن يقترحوا عليه فتاة جميلة يتزوّجها، أملا في وريث للعرش، فيقترح "ليث القصور" أميرة حسناء تدعى "صاعقة الحروب"، فيرسل الملك شرحبيل في خطبتها، ويتمّ الزواج، ويرزق الوالدان الملكان صبيا يُسمى "سيف التيجان"، وهو الصّبي الذي يحاط مولدُه بكثير من الأخبار العجيبة، ويتعرض إلى مصاعب تحضّرها له الحياة، إلى أن يتولى الحكم ويخوض معارك كبرى يجسّد أثناءها القيم الإنسانية في أسمى معانيها. ونُشرت ترجمة القصة عام 1862 وخرجت في 6 طبعات.

- **الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية**

تطلبت ترجمة الكتب الطبية بمدرسة الطب في مصر إيجاد أو ترجمة قاموس طبى، "وبدأت المدرسة بترجمة قاموس صغير مـن تأليف نايستن Nysten لكنه لم يف بالغرض، فأحضر كلوت بك من فرنسا "قاموس القواميس الطبية Dictionnaire des dictionnaires de médecine" تأليف فابر Fabre، وهو في ثمانية أجزاء ويشتمل على جميع المصطلحات العلمية والفنية في الطب والنبات والحيوان والعلوم الأخرى المختلفة المتصلة بالعلوم الطبية.

وتعاونت مدرسة الطب بكل هيئاتها لترجمة هذا القاموس إلى العربية، ففرقه مدير المدرسة آنذاك وهو الدكتور بيرون- على صفوة مدرسيها، وهم إبراهيم أفندى النبراوي معلم الجراحة

الكبرى، ومحمد أفندى على معلم الجراحة الصغرى، ومحمد شافعي أفندى معلم الأمراض الباطنية، ومحمد أفندى الشباسي معلم علم التشريح الخاص، وعيسوى أفندى النحراوي معلم علم التشريح العام، وأحمد أفندى الرشيدي معلم الطبيعة، وحسين أفندى غانم الرشيدي معلم المادة الطبية، ومصطفى أفندى السبكي معلم أمراض العين، وحسنين علي أفندى معلم النباتات، وترجم كل منهم الجزء الذي خُصص له وعمل على توقيع لفظه على المعنى المناسب.

وفضلا عن ذلك أراد الدكتور بيرون أن يُضَمِّنَ في القاموس الجديد كافة المصطلحات الطبية القديمة فوزع القاموس المحيط على نفس الأعضاء وأشرك معهم مصححي المدرسة، وهم الشيخ محمد عمر التونسي، والشيخ عوض القنياتي، والشيخ علي العدوي وطلب منهم مراجعة الأجزاء واستخلاص الألفاظ التي تدل على الأمراض والأعراض وأسماء النباتات والمعادن والحيوانات، وبعد ذلك - كما أورد الشيخ محمد التونسي- "خصنى الناظر المذكور باستخراج ما في القانون من التعاريف، وما في تذكرة داوود من كل معنى لطيف، وزدت على ذلك ما في فقه اللغة، ومختصر الصحاح، وما في الهروي من التعاريف الصحاح، وضممت لذلك أسماء الأطباء المشهورين، وأسماء عقاقير كنت رأيتها في بلاد السوادين."[1]

(1) الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية، ص ج-ه المقدمة.

فلما تمت كافة هذه الأعمال عُهد بالقاموس إلي الشيخ محمد التونسي، فرتب الألفاظ والمصطلحات على حروف المعجم وراجعه بصورة دقيقة وسماه التونسي "الشذور الذهبية في المصطلحات الطبية" وضمنه مصطلحات باللغات اللاتينية والفرنسية والفارسية.

ولم يكد الشيخ محمد التونسي ينتهي من إعداد القاموس حتى كان محمد علي باشا قد وافته المنية وركدت الحياة العلمية في عهد عباس الأول وخشي كلوت بك من ضياع هذا الجهد الضخم فاصطحب القاموس إلى باريس وقدمه هدية للمكتبة الوطنية في سبتمبر عام 1851. وفى بداية القرن العشرين فكرت مصر في هذا القاموس وأحضرت منه نسختين شمسيتين تم إيداعهما بدار الكتب الملكية في القاهرة.

- **القاموس المحيط للفيروزابادى**

فكر الدكتور نيكولا بيرون في طبع قاموس الفيروزابادى في مصر، كما ورد في رسالته الموجهة لصديقه جول مول في 14 يناير عام 1845، كما أكد لصديقه مول أنه أعد للأمر عدته فأحضر نسخاً كثيرة مخطوطة كما أحضر نسخة القاموس المطبوعة في كلتكا سنة 1230-1232، واتفق مع الشيخ التونسي على مراجعة النسخ ومقابلتها في أثناء الطباعة وطلب من الباشا الإذن بطبعه في مطبعة بولاق[1].

(1) انظر Jomard في مقدمته لكتاب Voyage au Darfour ص 10

لكن الدكتور جمال الدين الشيال يذكر في هذا الصدد "غير أنني رجعت لأقدم نسخة من القاموس طبعت في بولاق، فوجدت أنها نشرت في جزئين بإشراف وتصحيح الشيخين محمد قطة العدوى ونصر الهوريني، وذلك في سنة 1272 (1856) بأمر محمد سعيد باشا، ولم أجد في المراجع التي أفدت منها ما يبين الأسباب التي عاقت "برون" والتونسي عن تنفيذ مشروعهما، وجعلت تنفيذه على يد الشيخ نصر الهورينى"[1]. فيبدو أنه كان للدكتور بيرون إسهامٌ ما في الإعداد لنشر قاموس الفيروزابادي في مصر.

(1) جمال الدين الشيال: تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي، دار الفكر العربي، 1951: ص 194.

# إسهام نيكولا بيرون الثقافي بين مصر وفرنسا والجزائر

استطاع نيكولا بيرون بفضل عمله في مدرسة الطب في مصر ومعرفته باللغة العربية الاندماج في الوسط العلمي والثقافي في مصر، وترك بصمة على الحياة العلمية والثقافية فيها؛ فضلا عن تأثيره في الأدب الفرنسي الذي زوده بكتابات وترجمات ذات طابع جديد غير معروف في الكتابات المعاصرة في فرنسا. ونعرض في هذا الفصل لدور نيكولا بيرون وتأثيره في الإنتاج العلمي والأدبي العربي والغربي.

كان وجود بيرون في مصر مع أقرانه من السان سيمونيين الذين جاءوا للمساهمة في نهضة محمد علي الإصلاحية، وكانوا يجهلون اللغة العربية، ولكنهم في الوقت ذاته مثقفون ويشكل البحث والقراءة جزءاً لا يتجزأ من هويتهم وتكوينهم الأصيل. وللأسف لم يكن في مصر مكتبات أجنبية، لذا كوَّن هؤلاء المثقفون الأجانب جمعية تحمل اسم "الجمعية المصرية La société égyptienne" تأسست عام 1835 تهدف إلى إنشاء مكتبة تضم أكبر عدد ممكن من الكتب وخاصة ما يتناول الشرق وتاريخه وجغرافيته وأديانه وعاداته ...إلخ، وكانت مالية الجمعية تتكون من اشتراكات الأعضاء (وكان اشتراك العضو في العام

يبلغ مائة وخمسة قروش) فضلاً عن هبات الرحالة الأوروبيين الذين يمرون بالقاهرة؛ علماً بأن أي سائح أوروبي كان يستطيع التردد على الجمعية والاستفادة من مكتبتها بشرط أن يكون تقديمه للمكان عن طريق أحد الأعضاء، وفي نهاية الزيارة يقدم تبرعاً للجمعية من بضعة جنيهات توضع في صندوقها.

وتطورت أهداف الجمعية بعد ما يقرب من ست إلى سبع سنوات من تأسيسها فأصبحت طباعة الكتب المتعلقة بالشرق ونشرها أحد هذه الأهداف، وفى عام 1842 كان رئيس الجمعية، هو المهندس الفرنسي الشهير مسيو لينان Lenan وسكرتيرها هو الدكتور نيكولا بيرون، واستطاع هذا الأخير بفضل صداقته بجول مول أن تحصل الجمعية المصرية على مساعدات من الجمعية الآسيوية La société asiatique لبيع مطبوعاتها وكتبها في باريس.

واعترضت الجمعية المصرية الكثير من الصعوبات، فبين عامي 1835 و1843 وقع نزاع شخصي بين رئيس الجمعية دكتور فالن Walne وسكرتيرها العام الدكتور أبوت Dr. Abbot ما أدى إلى خروج جزء من أعضاء الجمعية وتكوينهم جمعية جديدة تحمل اسم "الجمعية الأدبية l'association littéraire" تضم ستين عضواً وتعمل على نشر النصوص الهيروغليفية، وأنشأت مكتبة لخدمة الأجانب من المقيمين والمسافرين في مصر. وانتهت حياة "الجمعية المصرية" بانحلالها في وقت متأخر، وتم ضم مكتبتها إلى المكتبة الخديوية (دار الكتب المصرية الآن) نحو عام 1873 وذلك تنفيذاً لوصية آخر أعضائها حككيان بك ومسيو توربون وكاف بك.

ولكن يتعين علينا الإشارة بداية إلى أنه، وفي نطاق مهمته الرئيسية بوصفه أستاذاً بمدرسة الطب بأبي زعبل ثم ناظراً لها، كوَّن بيرون فريقاً لترجمة الكتب الطبية والقواميس اللازمة لتدريس هذا العلم؛ مثل "قاموس القواميس الطبية" تأليف فابر، فقد تعاونت كافة هيئات مدرسة الطب لترجمة هذا القاموس الضخم، ولم يكتف الدكتور بيرون بذلك ولكن أراد أن يكون القاموس الجديد جامعاً للألفاظ والمصطلحات الطبية القديمة فأتى بالقاموس المحيط ووزعه على القائمين على العمل وطلب من الشيخ عمر التونسي مراجعة الترجمة وترتيب القاموس. وقد أطلق المفكر فيكتور شولشير Victor Schœlcher على بيرون "المستشرق العملي"، وفي كتابه "مصر في عام 1845" L'Egypte en 1845 رسم له لوحة ثرية مذكراً بصفة خاصة "أننا ندين له بفضل إدخال لغة ومصطلحات الكيمياء والفيزياء في لغة الدولة فلم تكن ترجمة المصطلحات الفنية إلى مقابلها بالعربية بالأمر الهين، فكان أول من طبع دروسه باللغة العربية والدفعة التي أعطاها ضاعفت وحسَّنت كافة الأعمال من هذا النوع." [1]

وفي إطار اهتمامه بالإسهام في النهضة العلمية والتعليمية التي قام بها محمد علي عمل الدكتور بيرون على نشر القواميس مثل "الشذور الذهبية" و"القاموس، المحيط للفيروزابادى"، وكان يرى – حسب رأيه الذي أفصح عنه في إحدى رسائله لصديقه جول

(1) Victor Schœlcher, l'Egypte en 1845, Paris Pagnerre, 1846 p. 46-47, 55 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

مول-: "أن هذا المشروع مفيد لا للأجانب المشتغلين باللغة العربية فحسب؛ بل للمسلمين أيضاً، فهذا القاموس سوف يساعد عدداً كبيراً من العلماء على البحث أو على الأقل القراءة؛ فهؤلاء العلماء لا يملكون من العلم سوى الاسم، وهم في غاية الكسل والجهل ولا يعرفون أسماء أبسط الكتب، ومع ذلك فهم يظنون أنهم يعرفون كل شيء"[1].

والحق أن الترجمة في ذلك الوقت كانت- في معظمها- تتجه اتجاهاً علمياً وكانت دائرتها محدودة، ولم يستفد الأزهر وعلماؤه وطلابه إلا بصورة ضعيفة من هذه الكتب الجديدة، فلم يُقبل على قراءتها إلا عدد قليل ولاسيما المصححين والمحررين الذين شاركوا في نقل هذه الكتب، وعدد آخر قليل من أمثال الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر الذي قال عنه تلميذه رفاعة إنه "كان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تاريخ وغيرها، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية..."[2]

ويروي بيرون أنه كان مرة في ضيافة الشيخ الجوهري وفى صحبته صديقه وأستاذه الشيخ محمد عمر التونسي، وكانت المائدة تضم عدداً آخر من شيوخ الأزهر، ودارت مناقشة طريفة حول رأيهم في الكتب المترجمة. ويحكي بيرون عن هذا الموقف

---

(1) Nicolas Perron, Sur les poètes Tarafah et Al-Moutalammis, Journal asiatique, tII, juin 1841, p.54 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

(2) رفاعة الطهطاوى: مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، مكتبة شركة الرغائب، مصر 1912: ص 376.

قائلاً: "وبعد تناول العشاء تحدثنا عن الدراسة والمدارس، فقال شيخي التونسي بعض الكلمات عن الكتب التي يراجعها في مدرسة الطب، فسألني شيخ من الحاضرين عن ماهية الكيمياء الحالية في أوربا، لأنهم لا يفهمون من لفظ "الكيمياء" إلا فن تحويل المعادن إلى ذهب... وقد حدثتهم عن الكيمياء حديثاً مختصراً، فانبرى واحد من الشيوخ وقال: وما فائدة هذه العلوم الدنيوية، لي الله، هذا كل ما يجب على الإنسان. وكأن هذا الشيخ كان يريد بهذه الكلمات أن يزيد في قيمة ورعه ويبرز شخصيته التقية الدينية، فاتخذت مظهر الجد وقلت له: وماذا تعني بهذه الكلمات البعيدة عن الدين؟ ولِمَ تهين هؤلاء العلماء الحاضرين بيننا، وكل العلماء الذين يعتز بهم الإسلام منذ ظهر في العالم؟ إنك ترى أن دراسة العلوم ليست ذات نفع، وإذن فدراسة الشعراء العرب القدامى وأخبار الجاهلية أمر لا فائدة فيه، بل هي دراسة خطرة، إني أقدم لك ثَنائي الخالص لأنك تجيد فن مدح الجهل، وأنت أيضاً – فوق ما تظن – تلميذ من تلاميذ الجاهلية. قل لي: أتعرف ما هو الله؟ أليس الله سبحانه هو المعرفة كل المعرفة؟ وهل تتكرم فتقول لي أيضاً أيهما أقرب للذات الإلهية، الجاهل أم العالم؟ فأجاب الشيخ: "ولكن دراسة العلوم الإنسانية تقود إلى الإثم" فقال بيرون: "إن دراسة العلوم الإنسانية تؤدي بالإنسان المفكر إلى الإعجاب بأفعال الخالق، وإلى إكبار عجائب العالم والعقل الإنساني ترى هل أضاع علماء الإسلام وقتهم وارتكبوا إثما عندما توفروا على دراسة الشعراء الجاهليين لكي

يصلوا إلى تفسير القرآن؟ إنهم إن ظلوا مثلك، وحكموا حكمك، فمن منكم كان يستطيع فهم القرآن اليوم؟... وذلك العالم الذي كان يحمل اسماً شبيهاً لاسم ضيفنا المبجل، والذي قضى - على الأقل – عشر سنوات من حياته متنقلا بين القبائل العربية في الصحراء لجمع مفردات اللغة العربية، وفي إنشاء قاموسه "الصحاح"، هذا الجوهري، هل كان مجنوناً أو غير مسلم أم غير مؤمن؟ ثم اختتم بيرون حديثه بجملة خطابية فقال: "سادتي إني أنصحكم أن تقلدوا هذا الشيخ في خوفكم وخشيتكم من الله، وعند ذلك يمكنكم أن تتأكدوا أن انحلال الإسلام سيخطو خطوات سريعة. إنّ مدح الجهالة هو أخطر علامة على التأخر الاجتماعي"[1]

وهذا الجمود من شيوخ الأزهر جعلهم - في نظر بيرون - بعيدين عن التطور والإفادة من النهضة العلمية. وقد تركزت العناية بالعلوم الحديثة والكتب المترجمة في المدارس الجديدة، وبدأ خريجوها يتصدرون المشهد الفكري والثقافي في مصر. ويقول الدكتور بيرون: "والآن تَخرجُ من بين تلاميذنا قوة علمية لو استمرت تحيا بعض الوقت، فإنها تستطيع أن تتغلب على معتقدات العلماء العلمية وأن تقضي على طريقتهم المدرسية العتيقة، وتلاميذنا الآن - نتيجة للثقة التي أكسبتهم إياها دراساتهم التجريبية في العلوم الصحيحة- يحاربون الكتب القديمة وآراء العلماء

(1) Perron, Lettre sur les écoles et l'imprimerie du Pacha d'Egypte, Journal Asiatique, 1843 pp 9-12 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

البالية الذين يعتقدون – في قرارة أنفسهم – أن الرأى القاطع في العلوم هو ما ورد في كتبهم العربية"[1].

وعلى الرغم من عدم إعجاب الدكتور بيرون بعلماء الأزهر وانتقاده مستواهم العلمي والثقافي فإنه ارتبط باثنين منهم هما الشيخ محمد عيّاد الطنطاوي والشيخ محمد عمر التونسي. واهتم بيرون بفضل إتقانه العربية بعد فترة من إقامته في مصر بالاطلاع على الأدب العربي الجاهلي وعلى كتب التراث الإسلامي، وترجم بعضها وعلق على بعضها الآخر وأشار جزافيه مارمييه في عام 1847 إلى وجود نيكولا بيرون ضمن "مبعوثي الحضارة" ووصفه بأنه "عالم كيمياء مميز وعامل دءوب (...) أخذ قسطاً من الراحة في التعليم المكلف به في مدرسة الطب ليفحص المخطوطات العربية، ويجمع مفاهيم ثرية حول شعر العرب الجاهلي وجغرافيتهم القديمة".[2]

وإلى جانب أنشطته المهنية، دخل نيكولا بيرون في علاقات مع الشيخين التونسي والطنطاوي، وبصحبته فولجنس فرينل Fulgence Fresnel، واكتشف كتاب الأغاني الذي يحتوي على أكبر مجموعة من الأحداث المعروفة والخاصة بالعصر الجاهلي. وفي خطاب من الإسكندرية بتاريخ 10 أغسطس 1838 كتب نيكولا بيرون لجول مول أمين الجمعية الآسيوية معرباً عن أمنيته

(1) نفس المرجع: ص.12 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

(2) Xavier Marmier, *Du Rhin au Nil*, *Tyrol, Hongrie, Provinces danubiennes, Syrie*, *Palestine, Egypte, Souvenirs du voyage*, Paris A. Bertrand 1847 t. 2, 432. (تمت الترجمة بمعرفتنا)

في المشاركة في المشروع الفرنسي الخاص بنشر تاريخ شعراء الجاهلية، وكانت فكرة بيرون تقوم على ترجمة كتاب الأغاني ليكون عملاً على نسق حياة بلوتارك أو ما يشبه ذلك، فيترجم أخبار الشعراء المذكورة في الكتاب بصورة نصية مع أبيات الشعر التي يذكرها والظروف التي شكّلت تاريخ كل من هؤلاء الشعراء، مع إضافة الإيضاحات اللازمة لتحديد فترة وجود كل منهم ما يفضي في النهاية إلى رسم صورة تنتج تاريخ الجاهلية وشعراءها وأنواع شعرها. وطلب بعد عام من صديقه في خطاب بتاريخ 26 سبتمبر 1839 النصح لنشر هذه الأعمال "نحن هنا بعيدون عنكم، ويصعب علينا أن نكون على ذات درجة حرارة أدب وفلسفة العصر في فرنسا وأوروبا". وكان بيرون يعرف أن هذا الشكل الأدبي لم يلهم المبدعين الفرنسيين بصورة مباشرة كما رفض الشيوخ في مصر شعراء الجاهلية "الوثنيين". وفي مقال مخصص للشاعرين طَرَفة والمتلمّس يشرح نيكولا بيرون أن ما يكتبه خارج عن مجال معرفة علماء القاهرة "لأن علماء الشرق ليسوا علماء، وأدباءه ليسوا أدباء، والقراء لا يقرأون ... إنهم متحولون".[1]

وفي قلب هذا المشروع الذي رسمه بيرون لتقديم شعراء الجاهلية نجده يقدم "عنتر، قصة بدوية". فاليمني عنتر، أو عنترة، ولد لأب من سادة العرب وأم حبشية من العبيد ما جعله مادة للسخرية... ويقول كوسان دي برسيفال Caussin de Perceval

(1) Lettres du dr. Perron du Caire et d'Alexandrie, à Jules Mohl, à Paris - Le Caire – F. Diemer – 1911 – pp. 46-47, 55 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

عام 1833: إننا نجد في هذه القصة "رسماً حقيقياً لحياة عرب الصحراء الذين لم تتغير عاداتهم قط مع مرور الزمن، ضيافتهم وثأرهم وعشقهم وحريتهم وحماستهم للنهب وتذوقهم للشعر، كل شيء مكتوب بنفس واقعية كتابات هوميروس."[1] وفي عام 1849 – 1850 كرس برسيفال محاضراته في الكوليج دي فرانس لشرح رواية عنترة، وكان يرى أن كل شيء فيها يبدو وكأن عصوراً وسطى عميقة مثل التي سبقت الانفصال بين الشرق والغرب تظهر مرة أخرى. ويدخل نيكولا بيرون في هذه الحركة الأدبية "برسالة عن عنترة" التي ظهرت في الجريدة الآسيوية في ديسمبر عام 1840 وأعيد نشرها في كتاب منفصل، ويتحدث فيها عن إقامته لدى شيوخ الإسكندرية ونقاشاتهم حول أحد الوجوه المؤثرة التي تُكَوِّنُ الـمعرض التاريخي للصحراء قبل الإسلام. وتحدث بيرون عن هذا البطل مع إسماعيل أوربان Ismayl Urbain الذي أعجب به واستلهمه ليكتب قصيدته الطويلة "فتاة دمنهور" "La fille de Damanhour"، التي كتبها في مصر القديمة في 11 ديسمبر 1833. ويؤكد نيكولا بيرون في حديثه عن عنترة على "الولاء الساذج والمأساوي الذي كان يدين به عنترة لوالده وسيده"، ويحاول تأكيد أن "لون الفرد ومنزلته، والخيمة التي يسكنها، والإهانات التي يتجرعها، والضربات التي يتلقاها، والظلم والمحن التي أشبعته لا يمكن أن تمنعه - وهو رجل الضمير والحكمة -

(1) Caussin de Perceval, Nouveau journal asiatique, août 1833, P97 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

من الجلوس على رأس من وضعتهم الأفكار المسبقة الحالية في المقدمة، فعنترة القصة فارس، ويتسنى لنا القول: إنه فارس من عصور فروسية أوروبا وهذا واقع في الجزيرة العربية، لقد كان فارساً عربياً فضلاً عن كونه شاعراً"[1].

كما كتب يبرون في سياق هذا المشروع الأدبي "رسالة حول تاريخ العرب قبل الإسلام"، ويقول فيكتور شلوشير بعد نقاش دار مع بيرون عنها: إن شغف بيرون يتجه فيها نحو "شعراء الجاهلية، شعراء الطبيعة الذين كانوا غالباً ما يجهلون القراءة والكتابة، والذين قدموا أجزاء للأغاني الشعبية وأناشيد القبائل التي حُفظت بطريقة شفاهية حتى وصلت إلى الحقب التاريخية ونُقلت إلى ذاكرة الأفراد في كتب حتى لا تمَّحي أبداً، وهو يعيد بذلك تشكيل تاريخ أدبي يقترب من القرنين اللذين سبقا ظهور الإسلام، ومن ثم فالأمر يتعلق بتاريخ جزء من العالم مجهول تماماً، صفحة من العادات العامة للإنسانية كانت ناقصة." ويُثني على بيرون قائلا: "سعيد هو هذا البلد (فرنسا) الذي رغم كل المحاولات للإنقاص من شأنه لا يزال قادراً على إعطاء مثل هؤلاء الأبناء لصُدف الهجرة وللمقادير التي تواجه مبعوثي الحضارة! أي سعادة يمكن أن يشعر بها المسافر الفرنسي عند لقاء مثل هؤلاء الإخوة على طريقه"[2].

---

(1) Nicolas Perron, Lettre sur Antar, Paris, imprimerie royale, 1841, P 468 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

(2) Victor Schœlcher– المصدر السابق ص48. (تمت الترجمة بمعرفتنا)

وقادت الأبحاث التاريخية والثقافية نيكولا بيرون إلى التردد على بناة مصر العربية المعاصرة، كما تحدث عن ذلك في عرضه للببليوجرافيا التحليلية لمنشورات ورشة الترجمة التي افتتحها رفاعة الطهطاوي عند عودته من باريس بعد سنوات تكوينه، والتي نشرها في الجريدة الآسيوية عام (1843) بمساعدة الدبلوماسي تيودور جزافييه بيانكي Théodore Xavier Bianchi، وتضم هذه الببليوجرافيا التحليلية 243 عنواناً من إصدارات مطبعة بولاق في الفترة ما بين عامي 1822 و1843.

وآمن نيكولا بيرون بقيمة مدارس الطباعة التي تم إنشاؤها على النمط الأوروبي لإسقاط "الصدأ المدرسي القديم" للشيوخ الذين كان يدافع أمامهم عن قضية دراسة "الشعراء العرب الوثنيين للوصول إلى تفسير النص القرآني"، ويقول بيرون في رسالة لصديقه مول نُشرت في الجريدة الآسيوية في هذا الصدد[1]: "لا تعتقد سيدي أنه لا يوجد أي شاعر هنا، بلى يوجد بعض الشعراء، وأولهم بلا منازع، هو الشيخ علي درويش، لقد تحدثت مع هذا الشيخ، وأرى أنه يستحق المركز الأول بين الشعراء الحاليين، فهو يملك يقظة الفكر وأناقة التعبير وحدَّة الحيوية ما يجعله أميز الرجال الذين رأيتهم حتى الآن، وهو متميز بصورة خاصة في مجال الهجاء".

---

(1) Nicolas Perron, Légendes orientales. Première lettre. Aperçu historique sur les temps antéislamiques, d'après les docteurs musulmans, La revue indépendante, t 4, août 1842, P. 432. (تمت الترجمة بمعرفتنا)

وبينما كان الدكتور بيرون يعيد تكوين الحوليات التاريخية الأدبية العربية استوقفه العديد من الروايات، ولذا نشر رسالة أولى حول "الأساطير الشرقية" Légendes orientales التي أهداها إلى جورج ساند George Sand طالباً "رعايتها" لها وذلك في خطاب مفتوح وجهه إليها من مصر في أبريل عام 1842 يقول فيه: "أهديك سيدتي ثمرة أعمال طويلة ومجهدة، نتيجة لقراءات عدة ومطالعات مجهدة، فالكتب العربية القديمة جد صعبة! لقد استخلصتُ أساطير شعراء الجاهلية واستطعت أن أرسم صورة تاريخية أمينة عن شعر وعادات الجاهلية (...) فلننقذ سيدتي الشرق الأدبي القديم، فدون الغرب سيموت قريباً، فلننقذ من النسيان شعراء الجاهلية والنساء اللائي كن يلهمنهم ويحصلن في المقابل على هتافهم وحبهم."[1]

وبعد عشر سنوات نشرت الجريدة الشرقية في يناير 1852 "قصص عربية" Récits arabes، وهي نوع من الجغرافية الخيالية يتعلق بالأنهار الأرضية التي تنبع من السماء – وكان النيل هو المثال على ذلك مدة طويلة- والنبوءات والمناخات السبعة للأرض أو التجويفات الأرضية، وشكّل ذلك فرصة لبيرون لكتابة ديباجة لترجماته بعنوان "Proéme": "لو كنا مسلمين وقادرين على قبول أن القرآن هو القانون النهائي الذي سيتعين أن يحكم القلوب والمجتمعات حتى نهاية العالم، وكنا نؤمن بجنة محمد، وكنا لا نأمل في حياة المستقبل إلا الحوريات دائمة العذرية لبدأنا هنا

(1) نفس المرجع- ص 456.

بتسطير هذه الكلمات المقدسة - كما يقول العربي - بالمسك والعنبر "بسم الله الرحمن الرحيم"، وهي الديباجة العامة لكل عمل صباحي أو مسائي، وما كنا لنبدأ رواياتنا إلا بعد الابتهال إلى الله وإجلاله وبعد الصلاة على النبي العربي، ولكن بما أننا لسنا مسلمين ندخل مباشرة في الموضوع وسنترك تقاليدنا والروايات العربية على ما هي عليه من لون وهيئة"[1].

سافر نيكولا بيرون إلى باريس عام 1849 بعد انتهاج عباس الأول خليفة محمد علي سياسةً أقل انفتاحاً إزاء التلاقح الثقافي الأوروبي، ولكنه عاد إلى الإسكندرية في خريف 1853، ونشرت له مجلة باريس التي يديرها مكسيم دو كان Maxime du Camp "يوسف بن يعقوب أسطورة عربية مترجمة"، التي تقدم اعتقاده في غرق جثمان يوسف في النهر، وكان هذا هو ما يجب أن يحدث حتى لا تكون إحدى ضفتي النهر صحراوية لعدم وجود "التابوت المقدس" عليها. وتحدث بيرون عن إعجاب شارل بودلير بالنص: "إنني أعجز عن الشكر لهذه المتعة التي شعرت بها، إنه أجمل وأروع وأعذب مما جعلتني أتوقعه [..] فالإسلام إذا ما نظرنا إليه بطريقة سليمة ليس سوى كنيسة مصلحة – أو أحد مراحل البروتستانتية – أو شيء من هذا القبيل"[2].

---

(1) Nicolas Perron, Recits arabes in Revue orientale, janvier 1852, p. 19 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

(2) Charles Baudelaire, Correspondance, Claude Pichois, Gallimard, 1973, t 1, pp198-199. (تمت الترجمة بمعرفتنا)

وإلى جانب مشروعه الأدبى لنقل الشعر الجاهلي قدم بيرون مشروعا طموحا آخر يتعلق "بإعادة تشكيل نشأة الشعب العربى"[1] فنشر فى الجريدة الأسيوية دراسته حول "تاريخ العرب قبل الإسلام "L'histoire des arabes avant l'islamisme، كما ترجم إلى الفرنسية مجموعة هامة من كتب الفقه الإسلامي، مثل ***"كتاب المختصر" للفقيه خليل بن إسحاق الجندي،*** وهو من أمهات الفقه المالكي، و***"كتاب الميزان"*** لعبد الوهاب الشعراني، وهو ملخص لمبادئ الشريعة الإسلامية وممارستها، وكتاب ***"الطب النبوى" لجلال الدين السيوطى*** الذي يقدم رؤية واضحة عن أسباب المرض والمداواة، ويحتوى على وصف مفصل للأمراض الجسمانية والروحية المذكورة في القرآن ومن حكمة الرسول، و***"رسالة في الفقه الإسلامى وفقاً للمذهب المالكي"*** وهو ملخص من الترجمات الفرنسية لسيدى خليل مع ملاحظات وسيرة بعلم خليل بن إسحاق الجندي،كما كتب دراستين هامتين في هذا الشأن؛ الأولى، هي ***المذهب المالكي الإسلامى – دراسة نقدية للترجمة الرسمية التي قام بها بيرون لكتاب خليل،*** والثانية، هي ***"الإسلام: مؤسسته وتأثيره ومستقبله"*** التي تقدم رؤية بيرون الشاملة عن الإسلام وذلك بعد إقامته مدة تزيد على عشرين عاماً في بلاد إسلامية ودراسته وترجمته لكتب الفقه.

(1) Lettre sur l'histoire des arabes avant l'islamisme, de l'époque du petit Tobba du siège de Médine et de l'introduction du judaïsme dans l'Yaman- Extrait du Journalasiatique-III$^{e}$ série-Imprimerie Royale- Paris- 1838

ونشر نيكولا بيرون في باريس عام 1845، برعاية فرنسوا جومار، ترجمة *"رحلة إلى دارفور"* للشيخ محمد عمر التونسي، وهو عمل معاصر حظيت فكرته ومضمونه واستقباله النقدي بمكانة مدهشة في ملتقى اللغات والثقافات، وتبع هذا الكتاب كتاب آخر بعنوان *"رحلة إلى وادايّ"* (1851)، ويحكي الكتاب رحلة التونسي بحثاً عن والده وجدِّه اللذين رحلا إلى السودان، وهو قُطْر لم يكن معروفاً للأوروبيين آنذاك ومكث فيه من 1805 حتى 1813. وعندما أصبح التونسي كبير المراجعين في مدرسة الطب بأبى زعبل عام 1832 علَّم بيرون اللغة العربية، الذي دفعه إلى كتابة قصة مغامراته وترجمها إلى الفرنسية، وتعد المقدمة الطويلة التي كتبها نيكولا بيرون دفاعاً بين الثقافات يسعى فيها دون جدوى إلى تحويل "الفضول الشره والنهم للبشر" عن الأراضي الجديدة وإقصاء "اللعنة القاسية التي يصبها البيض على السود منذ القدم، والتي تحولت إلى عداء دفع بعض المسافرين حياتهم ثمناً له"، ومن هنا "لم يتسن للحضارة الاقتراب ممن هم في نظري مساوون لكل البشر حتى وإن كانوا متأخرين، فمن المناسب أن نجعلهم يستفيدون من مزايا الحضارة وإشراكهم في الحياة الأخلاقية والفكرية. إنه واجب ديني اجتماعي، والتزام مقدس للشعوب المتحضرة"[1]. ويعتمد التونسي في كتابه على عدد كبير من القصائد العربية والرحلات الأدبية التي لا يترجمها نيكولا بيرون دائماً، ولكن يذكرها في

(1) Mohammed Ibn- Omar el-Tounsy, voyage au Ouaday, trad. De l'arabe par le docteur Perron- Duprat- Paris- 1851 P. LXXXII-LXXXVIII. (تمت الترجمة بمعرفتنا)

ملاحظات هامشية، وفي ملحق كبير يرسم بيرون لوحة عن عادات مسلمي القاهرة وتقاليدهم وعقائدهم، وكذلك عادات الصوفيين الحقيقيين الذين قابلهم، فضلاً عن قصص الجان وكائنات الروائع الشعبية المصرية، وكان مولعاً بـصفة خاصة بالمعتقدات الإسلامية الخاصة بالأزمنة القديمة لعالم الجان.

وحققت *"رحلة إلى دارفور"* نجاحاً فورياً وفقاً للحصر الذي قدمته مجلة الإلستراسيون Illustration التي نشرت العديد من الاقتباسات حول هذا الموضوع في شهر أكتوبر، أو المقالات المنشورة في "الجريدة الآسيوية" و"جريدة العلماء" و"جريدة العالمين"، وبعد ذلك في "القاموس العالمي الكبير للقرن التاسع عشر". وفي مجلة "بولوز" Buloz لخص بافر Pavre مطولاً القصص المكتوبة التي تحقق المتعة البديهية للقراء عن طريق الغريب من العناصر وختم بالقول: "هذه الرحلة كُتبت بالعربية، وهي من كافة الجوانب عمل لأديب شرقي، وأظهر الشيخ محمد دلائل على علم وذكاء بالمشاركة النشطة في نشر كتب مترجمة من اللغات الأوروبية [...]، وكان جديراً بعميد المسافرين في صعيد مصر أن يُعرِّف أوروبا بهذا العمل المليء بأحداث جديدة؛ وقد فعل ذلك بيرون بمزيد من الوعي والموهبة دون تغيير أي شيء في شكل الرواية، وأثراها بالملاحظات والإيضاحات التي تعد الملحق اللازم"[1].

(1) Théodore Pavie, Le voyage au Darfour, Revue de deux mondes, t 45, Vol.13, janvier 1846, P. 56, 59-60 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

ويرى إيتيان كاترمير Étienne Quatremère أن هذه الرحلة العربية كتبها عالم وجد "في الدكتور بيرون مترجماً بارعاً، عاش في مصر أربعة عشر عاماً ويجيد العربية العامية والفصحى"[1]، وفي عامي 1850 – 1851 تناولت المحاضرات العامة لكوسان دي برسيفال في الكوليج دي فرانس قراءة وتعليقاً على *"رحلة إلى دارفور"*، أما عن أسلوب الكتاب فقد ذكرت مجلة الإلستراسيون "أن الأسلوب يتسم بالأناقة والحرارة والسرد السريع ويتخلله اقتباسات من النثر والشعر"، كما وصف فليكس مورنان Félix Mornand *"رحلة واداي"* عند ظهور الكتاب، وقد تحدث عنها مطولاً في مجلة الإلستراسيون "بالكنز المتعلق بالأعراق"[2].

وفي كتابه *"عن مصر"* *De l'Egypte* قدم نيكولا بيرون الاختلاف والبعد المصري، فمصر، بلد الفراعنة والعرب، أصبحت مجرد ميناء لأقطار أكثر غموضاً. وأصبح كتاب التونسي أيضاً مرجعاً قيماً عن إفريقيا، وهي فضاء جديد ومحتمل "للمستعمرين" الفرنسيين.

وفي هذه السنوات نفسها ترجم نيكولا بيرون لصديقه المصري رفاعة الطهطاوي بعد عودته من بعثته الدراسية في فرنسا، فنشر ترجمةً لنشيد وطني مصري كتبه رفاعة وتم تلحينه لتعزفه الفرق، وطُبع بمطبعة بولاق في ديسمبر عام 1855، وفضلاً عن العديد

(1) Étienne Quatremère, Journal des savants, avril 1853, P.212 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

(2) L'Illustration, n.421, 22 mars 1851, p.83 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

من المقاطع التي تمدح الخديوي الجديد كان هناك مقطع هام يتحدث عن المطالبة باستمرارية البلاد في عهد سيزوستريس.

اعتباراً من 1857 أصبح نيكولا بيرون مديراً للكوليج الأمبريالي بالجزائر العاصمة في الوقت الذي أُعيد فيه فتح مدرسة الطب بالقاهرة التي أغلقت في عهد عباس الأول. ونشر بيرون من المغرب ثمار مجموعاته من الأدب العربي التي اكتشفها في مصر: ***"المرأة العربية قبل الإسلام وبعده"*** عام (1858) و***"سيف التيجان"*** عام (1862)؛ بينما سافر كل من إيميل بريس دافين Emile Prisse d'Avennes وجوزيف ماشورو Joseph Machereau ليقيما فترة أخرى في مصر. وفي تقريره لعام 1860 طلب جول مول[1] تعلُّم "معرفة الشرق ولغاته وتاريخه وقوانينه، إذ يتطلب شرف الشعوب المتحضرة أن تستنير أوروبا بشأن الدور الذي تضطلع به وخطورة المسئولية التي تتحملها أمام المستقبل وأمام التاريخ".

ونشر نيكولا بيرون عام 1858 ***"نساء العرب قبل الإسلام وبعده"*** بينما كانت الثقافة العربية الكلاسيكية تبحث عن تصنيف لها في فرنسا دون أن يكون هناك أي عداء للإسلام، وهو كتاب من 600 صفحة مكتوب اعتماداً على المصادر العربية عن مصر، وتحدث المؤلف عن "النساء المثقفات" من البدويات وندد

(1) Jules Mohl, Rapport annuel 1860, Journal asiatique, Juillet 1960, P. 39 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

بسيطرة الرجال المعاصرة في القاهرة وباريس، وأعاد بناء صورة فروسية نسوية جاهلية وطلب مرة أخرى رعاية جورج ساند. وفي عدد الجريدة الآسيوية لشهر مايو 1859 تحدث إرنست رينان "عن كتاب فريد وغريب يتناول التاريخ والشعر" و"تاريخ متعقل عن دور المرأة وطابعها عند العرب قبل محمد وبعده، مؤكداً على أنه منذ بداية الإسلام ظلت المرأة تتدهور، وكل ذلك في أسلوب شائق وثري وتلقائي في بعض الأحيان ليشكل كتاباً تعليمياً يُظهر جانباً من حياة العرب غير معروف، ولا يذكر المؤلف أبداً مصادره، ويُعتقد أن جزءاً كبيراً من الحكايات التي يحتويها الكتاب مأخوذ من كتاب الأغاني."[1] وبهذا الإسهام المبتكر، وربما الوحيد في تاريخ أدب منسوج من جزئيات الخيال، كان هناك صمت فيما يتعلق باستقبال النقد لهذا الكتاب أو بالأحرى بعض الملاحظات السريعة التي أكدت هامشية موقفه، فلم تكن هناك اتجاهات فكرية تقوم على نقد عودة السلطوية الذكورية للمجتمعات الإسلامية.

ونشر نيكولا بيرون ترجمة "***سيف التيجان***" عام 1862 لدى دوبرا، وأراد بهذا العمل تعريف الجمهور الفرنسي "بمقابل الحروب الصليبية"، فهي قصة الحرب على المسيحيين، ويشرح في مقدمته أنه حاول أن ينقل الصياغة والإبداع الأصلي للغة الكتابة وقد أقول غرابتها، وكانت الأشكال القديمة للغة الفرنسية

(1) Ernest Renan, Compte rendu, Journal Asiatique, mai 1859, PP. 30-31 (تمت الترجمة بمعرفتنا)

خليقة بأن تعكس أسلوب الراوي والروح العربية، ولكنه خشي أن يبدو مدعياً، وقد أُتهم باستخدام الألفاظ الجديدة (وهذا شيء لم يستهدفه قط)، لأنه لم يترجم بطريقة سطحية وثقيلة الشعر العربي والروايات التصويرية التي جُمعت في كتابه ***"نساء العرب قبل الإسلام وبعده"***.

ونجد ***"سيرة سيف بن ذي يزن"*** ، فيها الإيمان بوجود الجان وتقدم العالم الأسطوري المعتاد في الزمن الذي كان يتحدث فيه الإنس والجان ويتقاتلون بطرق سحرية للسيطرة على الطبيعة. وبوصفه راوياً دون جمهور اعتمد بيرون وضعية مترجم ملحمة المقاومة الإسلامية القديمة، ونجد البطل، وهو أداة للتحول بمساعدة قوة الجان الطيب، يتحرك في شبكة من القدرة والعجز تتجاوزه، وهذا ما يحيل إلى سؤال عن قدرات الخيال المبدع مثلما عاشها جيرار دي نيرفال عندما حلم بكافة هذه الأساطير التي ربما تكون فرعونية بعضها معروف باللغة القبطية وغالبيتها باللغة العربية فقط، وعبّر بطريقة مجازية عن المسألة الأدبية نفسها وكرر ممارسة الراوي التي تخلق عبر السرد مناخاً من العجائب مساوياً أو متجاوزاً القصة نفسها.

ومن هنا، يتسنى لنا التأكيد على ما قاله إرنست رينان في رثائه لنيكولا بيرون بالجمعية الآسيوية عام 1876 بأنه شخص "مليء بمشاعر الخير ومفعم بمبادئ فلسفة تعاطفية.... كان يؤمن بالعرب وبإمكانية نقلهم إلى الحضارة الأوروبية". والحق أن نيكولا بيرون

قدم أعمالاً تمثل ثقافة الآخر، فوجدنا بطبيعة الحال نوعاً من الأدب الفرنسي مقابل نوع من الأدب العربي غير متطابقين نسبياً ما شكل أحد العناصر البنيوية لتاريخ أدبي متقاطع، فقد جمع بيرون بين العمل الثقافى والإبداع الشخصى والتلاقح الثقافي التنازلى الذى يمكن أن يقود إلى اعتناق الثقافة الأخرى والانفصال التام عن أوروبا.

# مختارات من كتابات نيكولا بيرون

## أولاً: نساء العرب قبل الإسلام[1]

كتب كثيرون عن المرأة العربية لأنهم يحبون الاهتمام كثيراً "بالحريم"، أي الفاكهة الممنوعة أو الفاكهة صعبة المنال، ولكن، من الذي تحدث عن المرأة قبل الإسلام؟ من الذي تحدث عنها ببعض التفاصيل وبعض الألوان وبصورة خاصة من حيث الذكاء والروح والقلب؟ من الذي تحدث إليكم أيها الشعراء عن الشاعرات العربيات من هاته العصور القديمة؟ من الذي حكى لكم شيئاً عن قصص حب المرأة وحياتها في الخيام حيث كان الحريم؟ إنكم مغرمون وتجنون من كل ما له مذاق الشعر، شعر الأبيات وشعر الأفعال، وأنا على ثقة بصورة مسبقة أن عيونكم ستلاحظ بمزيد من السعادة الطابع الذكورى لشعر المرأة في العصور العربية القديمة.

كان هناك شعراء بحق في شبه الجزيرة تلك! اواه! وكان شديد الحيوية هذا الشغف بالقافية بألفاظ متناسقة وبسطور ذات قياس بأشكال رزينة ذات وتيرة تصف مشاعر الزهو وأمجاد

---

(1) Femmes arabes avant et depuis l'islamisme PP 3-10
(تمت الترجمة بمعرفتنا)

الشجاعة ومباهج الثمالة ومديح الجمال وشكوك العشق، وكافة أشكال غضب الغيرة والمنافسة، ومختلف أنماط غطرسة الطبيعة الإنسانية.

وكل ذلك لأن الشعر هو أحد مظاهر روح العالم، تَجلٍّ إلهي، أطرافه هي كافة أطراف الشعوب، والملائكة والجان فيه على قدم المساواة لأن الشعر ينمو في كافة الأجواء ويتواءم ويتعايش مع كافة درجات التطور الاجتماعي ومع كافة الأشكال الإنسانية، فللشعر مضجع وتاج في كل مكان، فهو يسر بمشاعره الهمجي والمتحضر، وهو يحب الجميع ويتحدث كافة اللغات. والشعر لا يخشى جليد الشمال ولا لهيب شمس الاستواء، فهو يغني ألحانه في الثلج كما في وسط الحر الشديد، وكذلك من خلال الرمال الحارقة لدروب الصحراء الملتهبة، وكذلك أمام سراب الوحدة المجففة، وعلى آثار السيول المعذبة، وعلى هذه الطبيعة المرعبة والباهتة والسمراء المصفرة للفضاءات التي تسخنها الشمس لتصل إلى درجة اللافا البركانية التي تتجمد. الشعر! إنه يحب كل شيء، يحب أن يقول كل شيء، وأن يفعل كل شيء، في أى بلد كان يرتدى الشعر الثياب: الألوان والموسيقى والثروات والحزن والفرح والأحجار والندى والعطور والغضب والحب والفلسفة والضحك... والفيدا والملاحم والأغاني القشتالية والقصائد العربية والقصائد الأوليمبية وأبيات الشعر الكابتولينية وأبيات الشعر الفظة كلها إخوة وأخوات، تختلف الأسماء والروح واحدة.

شعراء الجاهلية كان عددهم كبيراً، هؤلاء الذين ألهمتهم الطبيعة وسحروا بأبيات شعرهم الخيام السمراء المصفرة للقبائل السيارة بالجزيرة العربية التي كان أفرادها يغنون ليلاً – وهم جالسون في ضوء القمر الأبيض – قوافيهم السلسة السهلة لدوائر المحاربين يرددون مدائح الحرب أو النهب، ويغنون مشاعرهم للفتيات والسيدات المجتمعات حولهن، ويصرخون بتهديداتهم أو شكواهم لدروب الصحراء وإلى رفاق النهب. نعم، في شبه الجزيرة تلك التي لا يمكن السكن فيها والمسكونة في كل الأزمان، على سهول سبأ وقصور غمدان في صنعاء تحت رحيق المنثور من ورود أشجار نخيل المدينة في قلب بحور الرمال بعيداً عن السواحل الرملية شديدة الانحدار للمحيط وبحر القُلزم والبحر الفارسى، في كافة هذه الأماكن حيث كان يتنفس العربي مع جملة بحرية بين الرمال الشاسعة والسماء الشاسعة، هناك كان الشعراء يولدون في كل مكان، تحت خيمة ملك القبيلة، وتحت خيمة المحارب النبيل، وتحت خيمة الراعي البسيط الذي يرتدي الملابس الرثة، وتحت خيمة العبد والتعيس والناهب، وعلى طريق المغامرات، وعلى مضجع رمال الفاجر الذي تبرأ منه ذووه والملطخ بالدماء والمطرود من وسط إخوته ومنفي من القبائل.

على أي قياسات منتظمة ومتعددة ألقى هؤلاء الرجال غير المثقفين أو نساؤهم أفكارهم؟ أين تعلموا هذا التناغم الصوتي للكلام المجموع في إيقاع عروضي؟ ماذا كانوا يعرفون...؟ كانوا يعرفون ما يتعلمون وكانوا لا يتعلمون شيئاً، ماذا كان عساهم

يتعلمون؟ من كان يعرف القراءة؟ من كان يعرف الكتابة؟ لم يكن أحد يكتب وبالتالي لم يكن أحد يقرأ، كانوا ينظمون الشعر ويرتجلون ويسمعون، وكانت أبيات الشعر تنتقل بهذه الطريقة من ذاكرة إلى أخرى ومن قبيلة إلى أخرى ومن جيل إلى آخر، ولكن، فضلاً عن ذلك كانوا يتدربون ويعملون على صناعة مهاوي رماح جميلة، وكانوا يبحثون عن السيوف الصقيلة القاطعة والشفرات المرتجفة طويلاً من أثر التلويح، وكانوا يعدون أقواساً من الخشب المصفر الصلب واللين، وكانوا يسلحون السهام المكسوة بالريش المسنونة جيداً عند رأس المقدمة بالعظام أو القرن أو بالصخر، وكانوا ينسجون أقمشة خيام حمراء وبنية وسوداء بوبر الجمال. ماذا يمكن أن أضيف؟ كانوا يتسابقون لاصطياد المسافرين والهجوم على القبائل وكانوا يجمعون الغنائم من كل شيء، وكان الشعراء بعد سباقاتهم ورحلاتهم ومعاركهم أو في أثنائها يرتجلون مقاطع الأبيات ليخلقوا بذلك أساطير شبه جزيرتهم، وتقاليدها، وذكرياتها، وتاريخها. وكان لزاما ليحصل المحارب، وهو رجل المعارك والضربات القوية، على بعض الشهرة في القبيلة أن يكون شاعراً يطعم بأبيات الشعر طلقة الرمح أو ضربة السيف ويغني الأحداث والحركات بمقاطع لا عيب فيها. وهكذا، كم من هؤلاء الأبطال البدو شرفوا برثاء أخت أو أم أو حبيبة أو عشيقة بقوافٍ نشطة ونقية، لأن هناك كانت النساء تملكن - بصورة طبيعية - حق الشعراء؛ فكان نظم الشعر فيما بينهن أمراً بسيطاً ومعتاداً، ولم يَكُنَّ أكثر اعتزازاً بذلك أو أقل حناناً أو حباً. نعم، كان يجب أن

يكون أحد المتسابقين - وهو فارس مثالي- محارباً وعاشقاً وشاعراً، هذا الثالوث الساحر، هو الوحيد الذي تعشقه فتيات الصحراء وكل فتيات الجزيرة العربية، الماكرات! هُنَّ اللائي ابتكرنه.

وهُنَّ أيضاً اللائي ألهمن الشعراء، وهنا، أيّاً كان الحب فهو ينثر رعشاته وعذوبته وآلامه الغائرة في كل القلوب الشاعرية وفي الأرواح الأكثر قسوة والأكثر حرماناً من الثروة، وما من قصيدة في الزمن الجميل إلا وافتتحت أولى مقاطعها بسلام أو تنهيدة أو مديح أو ذكرى محبوبة الشاعر، كانت أولى القوافي موجهة إلى الجميلة التي يحبها الشاعر وحتى لو كان يصف مذابح أو لعنات أو أعمال قتل ودماء، فإن الفكرة الأولى في القصيدة كانت عبارة عن إشادة أو ابتسامة أو ندم على حب، وكانت المرأة دوماً على قمة أى شعر، وكانت وردة الحب دائماً على جبهة القوافى الأولى. في أي دول إذن كان الشعراء بهذا القدر من المجاملة وبهذه الشدة الرقيقة؟ آه! فالحب هو النفس التي تحفظ حياة كل شاعر، الذين خلقوا الحُسنَ وجعلوا آله الشعر امرأة جميلة كانوا شعراء أصحاب أرواح وعواطف، إنها سيدة حنون قلبها ملئ بالحماس والنقاء، القديسة تيريزا التي قالت: "التعساء! أنهم الذين لا يعرفون الحب!".

وفى عصور الجاهلية العربية كانت المرأة أيضاً المعبودة المعشوقة، وكانت الموقد الذي يلهب أفكار الرجل ويشيعها... فالأنثى هي دائماً محرك مشاعر الذكر.

وقد انتقل عدد من أبيات شعر الوثنية عبر السنين من خلال ذاكرة العرب، وعشية الإسلام فقط، وكما لو كان هناك قرار أن تنقل الشواغل الجديدة الأرواح إلى مكان بعيد وتطفئ الشعر البدائى لاستبداله بشعر الدين الجديد، وما كدنا نتوه بكتابة الآثار الشعرية للجاهلية التي كانت على وشك النهاية لتفسح المجال للأنوار الدينية التي بدأت تشع، وظهر الإسلام وأعطى محمد الذي لم ينطق يوماً بيتاً من الشعر – شعر قرآنه الرائع.

وفى هذه اللحظة انعقد لسان كل الشعراء الموجودين، وظهر عالم جديد فاجأ الوثنية، ولم يستطع لبيد شاعر إحدى القصائد الذهبية السبعة إيجاد أى مقطع بعد بداية الإسلام، ومع ذلك تم الهجوم على النبى محمد بهجاء الشعراء الوثنيين وشعراء القافية الذين لم يعتنقوا الإسلام، ورأى أنه يحتاج أيضاً إلى قصائد خاصة به وحصل عليها.

ولم تدم طويلاً لحظات التوقف التي تسبب فيها الإسلام إزاء الإعجاب بالشعر الذي نقلته الوثنية العربية أو دراسته أو إلقائه، فأبيات الشعر الجميلة – كما نعلم جميعاً – لها قدرتها الطاغية؛ فالإيقاعات الجميلة التي تلف الأفكار الجميلة هي كيانات لا تكترث بمرور السنين، والنساء أنفسهن كُنَّ يعشقن هذه الأشعار القديمة لعالم آخر من عصور الجاهلية، وعليه، ففى بدايات عهد الإسلام قُرئ يوماً أمام عائشة ابنة طلحة وعدد من الشعراء المجتمعين لديها قصيدة تبلغ نحو ثمانين بيتاً، كانت لأحد قطاع

الطرق، أحد رجال الطريدة والدماء الذي لعنته قبيلته وكافة القبائل الأخرى، وكان السارق يشدو حبه وشواغل غرامه وحبه للسلب والنهب، وعندما انتهوا من قراءة شعر المتوحش الفاسق ظلت عائشة في حالة تأثر وإعجاب، وقالت: "من استطاع منكم أن يضيف إلى هذه القصيدة بيتاً، بيتاً واحداً يكون بقوة ولون مجموع القصيدة أعطيه عقدى الذي ألبسه".

وساد الصمت ولم يقبل أحد التحدي.

تعد حركة إعجاب عائشة - والتي هي نوع من الإشادة بتفوق الشعر الجاهلى – إحدى الخصائص العديدة التي توضح ما كانت عليه النساء العربيات في الماضى: حبهن للشعر وعظمة السلاح وأبيات الشعر.

وهنا نجد أيضاً دليلاً على أن السنوات الأولى للإسلام كانت تتسم بالتذوق الشعرى للوثنية العربية، كما كان لا يزال هناك نساء يقمن بالدراسة والتعلم ونساء ذوات فكر وثقافة واسعة، كان بداخلهن بقية من هذه الروح الشعرية التي كانت تشغف بالماضى وتُحمِّس الجميلات ذوات الوشاح طويل الأطراف في الصحراء الملحدة، وفى بدايات عصور الإسلام.

ويتعين الإشارة إلى ذلك بالرغم من قوة شبابه؛ فقد كان لا يزال هناك خلف الضفاف الشرقية للخليج العربي عائلات دي ديفان ودي جيوفرين ودي شاتليه يعقدون الصالونات الأدبية التي تعد مراكز للعقول الألمعية واجتماعات للعلماء. وفى

المحاضرات الطويلة، وفى ذكريات المؤتمرات الأدبية المشهورة في الحجاز والتي تعد أعياد الجزيرة الأوليمبية كان الحديث يدور حول ذكريات هؤلاء الشعراء الملحدين الذين سحروا بين فضاءات خيامهم - برواياتهم وارتجالاتهم - المحاربين والحكماء وأمراء القبائل، والأطفال المندهشين والسيدات العاطفيات والعذراوات المبتسمات، وحلقات المستمعين الكبيرة من كافة الدرجات، منبسطين أرضاً أو جالسين القرفصاء على الرمال أو على بساط سميك من الصوف أو شعر الجمال، هذه الجموع الخلابة التي كانت تتنفس مع نفحات الهواء الأساطير والأبيات التي يغنيها الشعراء في أثناء طراوة الليل، وفي يومنا هذا لا نكاد نجد بين كل المسلمات نساء يعرفن القراءة.

وفى عصر الجاهلية بالجزيرة العربية؛ أي في عصر الجهل والإلحاد، كانت النساء تصبغن - كنساء يومنا هذا - الحواجب والعيون والأيدى ويتعطرن بالبخور، وكانت لديهن المرايات. وكما كان الحال في روما القديمة كانت النساء العربيات تغزلن الصوف وتطهين العصيد، ولكنَّ النساء كانت تحب أيضاً مجد أزواجهن وأولادهن وإخوانهن وأقاربهن، وكانت تحب فرص الحروب وتصوير الشعراء وعلم أنساب العائلات وأساطير القبائل، وكانت تعتنين بملابسهن البسيطة وعقودهن غير المصقولة، وتفكرن في نضارة شفاههن ونعومة خدودهن وبريق أعينهن ودقة وتوازن خصرهن وتكوُّر أثدائهن وطراوة أذرعهن، ولم تكن هذه العناية

تهدف فحسب إلى إشعال حب جنونى في قلب الرجل أو إثارة حرارة جسده وحبسه تحت الخيمة، وإبعاده عما يجب أن يفعله كل شخص من تلقاء نفسه لمصلحة الآخرين وربطه بطبقة حسية وتضييق في آخر المطاف فكر الزوج في حدود حبال الخيمة؛ بل بالأحرى كانت تهدف إلى تحريك المحارب الشاب ليستحق أن يكون من القبيلة قبل الحصول على جوائز الحب، وإلى إلهام وإثارة الشاعر، وإلى توليد أساطير جديدة وإعلاء شأن القبيلة، وإلى ميلاد رجال وليست مخلوقات ضعيفة وعديمة القيمة عاجزة عن حماية مخيم أو خطف رهينة، أو فهم فكرة شعرية، أو التأثر بروايات التقاليد العديدة لشبه الجزيرة ذاتها.

كانت هاته النساء العربيات جميلات بلونهن الأسمر وعيونهن اللؤلؤية، كن تعشن في هواء الصحراء النقى، وتسافرن على ظهور الإبل من مرعى إلى آخر، وتأكلن الأطعمة البسيطة من المنتجات اليومية للقطعان وطرائد الغزلان والظباء ذات العيون السود الواسعة مثل عيون فتيات جوكتان وسبأ... "سبأ" اسم تركته الأزمنة القديمة لإعجاب العالم مع اسم ملكة.

## ثانياً: رسائل الدكتور بيرون من القاهرة والإسكندرية إلى جول مول بباريس

يعد كتاب رسائل الدكتور بيرون من القاهرة والإسكندرية إلى جول مول بباريس واحداً من أهم الكتب التي نُشرت عن الدكتور بيرون، وهى مجموعة من أربع عشرة رسالة من مراسلات الدكتور بيرون مع صديقه جول مول، ناموس الجمعية الآسيوية وعضو المجمع الفرنسي في باريس، وقد نشر جول مول بعض هذه الرسائل في الجريدة الآسيوية وظل جزء آخر غير منشور حتى انتقال هذه الرسائل بعد وفاة جول مول إلى ابن أخيه مسيو أ. دي مول O. de Mohl- الذي كان يعمل وزيراً مفوضاً ووكيلاً لألمانيا في صندوق الدين العام بالقاهرة- فقدم هذه الرسائل لصديقه يعقوب أرتين باشا وكيل وزارة المعارف في ذلك الوقت وعضو المجمع المصري ربما يجد فيها ما يهم مصر أو المجمع المصري قبل إرسالها إلى باريس لضمها لأوراق جول مول المحفوظة في المجمع الفرنسي.

ونشر يعقوب أرتين باشا هذه الخطابات وأضاف إليها مقدمة تحليلية سنة 1911 تحت عنوان:

Lettres du Dr. Perron, du Caire et d'Alexendrie, à Jules Mohl, à Paris (1838- 1854)

**"رسائل الدكتور بيرون من القاهرة والإسكندرية إلى جول مول بباريس (1838- 1854)"[1]**

وتصور هذه الرسائل نشاط بيرون العلمي في الترجمة والنشر ومدى إفادة مصر من نشاطه العلمي والفكري؛ فضلا عن آرائه في الحياة السياسية والعلمية في مصر، كما تلقي الضوء على علاقته بالعلماء ورأيه في علمهم وفكرهم وكتاباتهم. كان من المفترض ترجمة هذه الرسائل وحفظها في المجمع المصري بيد أن هذا المشروع لم يتم. والحق أن مقدمة يعقوب أرتين تقدم تحليلا دقيقاً ومنهجياً لهذه الرسائل الأربع عشرة، ورأينا من الأهمية بمكان ترجمة إحدى هذه الرسائل وتقديمها حتى يتعرف القارئ بصورة أكبر إلى فكر بيرون وأسلوبه.

## الرسالة رقم 14

الإسكندرية في 2 أكتوبر 1854

عزيزي السيد مول:

نما إلى علمي أن الجمعية الآسيوية – بناءً على اقتراح وزير الحرب ووفقاً لوعود الوزارة بشراء 750 نسخة - قررت نشر النص البسيط لفقه الخليل وترجمته. ووفقاً لهذه الشروط يبدو لي أن الصفقة جيدة بالنسبة إلى الجمعية، ولكن هناك ما يدهشني

(1) Yacoub Artin Pacha- Lettres du Dr. Perron, du Caire et d'Alexendrie, à Jules Mohl, à Paris (1838- 1854) – Le Caire 1911. (تمت الترجمة بمعرفتنا)

ويؤلمني، وهو أن السيد رينو Reinaud هو الذي سيقوم بالترجمة، وأنتم تعرفون جيداً مدى ضعف السيد رينو في اللغة العربية، وهو عاجز تمام العجز عن أداء مثل هذا العمل، والحق أن لديه ترجمتى ولكن مع ذلك لن يفهم النص الأصلى، وفى هذا الشأن لدى طلب عندك، وهو الحديث مع الشخص القادر على الحكم، فلتكتب كلمتين للسيد سلان Slane بالجزائر واطلب منه إعطاءك رأيه، والسيد سلان بقوته التي تفوق قوة السيد رينو متردد منذ عامين في نشر نص الخليل بترجمتى في جريدة "مبشر". ومن جانبه لا يشك السيد رينو في أي شيء، ولكن أقول لك مسبقاً: أن العمل سيكون سيئاً من حيث الشكل والمضمون، وسيكون مستواه أقل من ترجمة مُجلديّ ابن بطوطة، يا لها من لغة فرنسية ركيكة وثقيلة وعامية تلك التي كُتبت بها الترجمة، وأما المضمون فيتسم بعدم الدقة وبأخطاء في المعنى. وعلى أي حال لِنُنَحِّ هذا الموضوع جانباً. والحق أنني كنت أعتقد أنني لم أخطئ في حق الجمعية الآسيوية لدرجة أنهم لا يفكرون حتى في الاقتراح عليَّ بأن أقوم بترجمة "الخليل" بذات الشروط التي قبلها باقي مؤلفي الجمعية! لديكم في جمعيتكم مجموعة من الأشخاص يتسمون بمزيج من الغيرة والسخط وسوء النية، وهم يقللون من شأنها بطريقة متزايدة لأنهم الوحيدون تقريباً في الجريدة الذين يقدمون مقالاتهم الثقيلة، فهي ثقيلة على الأقل من حيث الشكل... ولكن، لماذا نقدم للقارئ هذه النسالة؟

وبالعودة لعمل الخليل، أؤكد لك أنه في حالة قيام السيد رينو بنقل ترجمتي فإني أحتفظ لنفسي بكافة حقوقي، وإن لم ينقل عني سيقدم عملاً رديئاً، وفي الحالتين فأنا في الانتظار، ورأيت أن الضمير يفرض عليَّ تحذيرك وآسف لنسيانك عرض هذا العمل عليَّ، رجاء إبلاغ السيد رينو والجمعية استيائي واستعدادي للقيام بالعمل، وأوصي السيد رينو بعدم المخاطرة بالتوقيع على شيء من غير اختصاصه غير واضح له، وتحت يدي ما يمكّنني أن ألقنه درساً مخزياً ولن أهادنه في ذلك.

وإنني أكتب لوزارة الحرب بشأن هذا الموضوع، وأقول لهم كل ما قلته لك للتو في السطور السابقة، إنه واجبي، فالسيد رينو يعشق تكرار ما فعله الآخرون ويعشق الاستحواذ، ومن ثم، أقترح على الوزارة ترتيباً ولن يكون أكثر كلفة مما عرضته على الجمعية.

ومن المفترض أن يكون قد تم نشر الجدول التحليلي والأبجدي لرسالة الفقه الآن، وقد كتبت لتوجيههم لتسليمك نسختك ولتسليم الجمعية نسختها.

وكملحق، أو تكملة لمقالة السيد جارسان دي تاسي Garcin de Tassy الهامة المنشورة في عدد مايو – يونيو 1854 من الجريدة الآسيوية أقترح أن أوجه إليكم عملاً صغيراً من نص عربي وترجمته يتناول أسماء الأعلام العربية من حيث أصولها وتقسيمها، وهي نشرة أعدها لي من قبل بناءً على طلبي شيخنا

الجليل الشيخ عياد - وهو الشيخ السابق للسيد فريسنيل وشيخي أنا شخصياً- وأملك وحدي هذا العمل الصغير. فهل يمكن أن يروق للجريدة الآسيوية؟ برجاء إخطاري إن كان الأمر كذلك وسوف أسعد بإرساله إليك.

وتفضلوا بقبول وافر التقدير.

**بيرون**

**ملحوظة**: اقترحت على الوزارة طباعة نص الخليل هنا في مصر، وسوف أطلب من شيخ مراجعته، وسيكون بطبيعة الحال أفضل بالتأكيد من السيد رينو، وسوف أُلحق به الترجمة، وطلبت من الوزارة ببساطة الاكتتاب لشراء 700 نسخة كما أرادت أن تفعل بالنسبة إلى النشر الذي كانت تنوى إعطاءه للجمعية الآسيوية.

# مختارات مما كُتب عن نيكولا بيرون

## أولاً: ترجمة دراسة يعقوب أرتين

**مقدمة**

قُدمت الدراسة التي تسبق نشر رسائل الدكتور بيرون في جلسة للمجمع المصري، ونُشرت في نشرته، السلسلة الخامسة – الجزء الثالث ص137.

وعند كتابتي هذه الدراسة حول بعض الرسائل غير المنشورة التي كتبها الدكتور بيرون إلى السيد ج. مول حرصت -بصفة خاصة- على الإشارة إلى الفقرات التي تتعلق بتاريخ مصر المعاصر.

وكان من المفترض أن تُنشر الرسائل نفسها كاملة بعد هذه الدراسة، كما طلبت أنا نفسي ذلك، لأن الفائدة التي تقدمها من وجهات نظر أخرى وقت كتابتها كانت خليقة بجعلها نفيسة بالنسبة إلى العلماء والباحثين.

ولسبب أو لآخر، مع ذلك، وبسبب عدم نشر هذه الرسائل واعتقادي بأن الدراسة غير كاملة، رأيت من الضروري نشرهما معاً وتقديمهما للجمهور.

**القاهرة 1911**

**يعقوب أرتين باشا**

## رسائل دكتور بيرون لـ ج. مول

## مقدمة - بقلم يعقوب أرتين باشا

في عام 1908 سلم لي السيد دي مول De Mohl، الوزير المفوض والمفوض الألمانى لصندوق الدين العام وزميلنا الموقر، أربع عشرة رسالة خطية من الدكتور بيرون كتبها من مصر للسيد جول مول المستشرق الشهير وعضو مجمع فرنسا وأمين الجمعية الآسيوية وعم السيد أو. مول.

وكافة الأوراق التي جاءت من جي مول تم حفظها في أرشيفات مجمع فرنسا، وفكر السيد أو. مول في ضم الخطابات التي كانت خاصته بصفته وريث عمه.

ومع ذلك، وبما أن هذه الرسائل كانت قد أُرسلت من مصر فإن السيد مول أوصلها إلَّي لمعرفة إذا ما كنت أجد فيها شيئاً يخص مصر، وبالتالى مجمعنا قبل إرسالها إلى باريس.

وأعتقد أنك تريد ضم صوتك إلى صوتي لشكر السيد مول لتفكيره السليم، ونظراً لأهمية هذه الرسائل – من جوانب عدة – السماح بنشرها في جريدتكم.

فى التقرير حول أعمال مجلس الجمعية الآسيوية خلال الأعوام من 1875 – 1876 وبتاريخ 28 يونيو 1876 (المسلسل 7 – الجزء 8)، عند تقديم السيد إرنست رينان لأعمال الجمعية تحدث عن سيرة السيد جي. مول وأثنى عليه، وقال أن السيد جي. مول ولد في شتوتجارت في 25 أكتوبر 1800 وتوفي في 4 يناير 1876 في باريس.

وفى ذات التقرير أثنى السيد إرنست رينان وقدم سيرة الدكتور بيرون - الذي وافته المنية بعد وقت قصير- لاحقاً بمراسله السيد جي. مول.

وفيما يلي ما قاله السيد إرنست رينان:

"فى الحادى عشر من يناير عام 1876 توفي أيضَا رجل ترك في تاريخ دراساتنا ذكرى مستدامة، هو الدكتور بيرون، أحد أوائل الملتزمين في كتيبة الرجال المستنيرين والشجعان الذين ساندوا في مصر المبادرات الحضارية لمحمد علي. ولم يدرس بيرون الشرق بوصفه عالماً فحسب؛ شأنه شأن كافة أبناء جيله، ولكنه آمن بالشرق وحلم بتجديده وعمل لتحقيق حلمه بتفان نادر، ويعد تأسيس طب عربي/ فرنسي بصورة كبيرة أحد إنجازاته، كما قدم لمدارس الجزائر الكثير من الإنجازات المماثلة. والدكتور بيرون شخص ملئ بالمشاعر الخيرية ومفعم بمبادئ فلسفة متعاطفة، وهو محب للعرب ومؤمن بإمكانية ربطهم بالحضارة الأوروبية.[1]

نشر الدكتور بيرون العديد من الترجمات عن العربية: رحلة إلى دارفور وأخرى إلى واداي بين عامى 1845 و1846، وترجمة المختصر لسيدى خليل بن إسحق، وهو قانون وفقاً للمذهب المالكي من ثلاثة أجزاء من 1846 إلى 1851، ونساء العرب، الذي قال عنه مول وهو يقدمه للجمعية الآسيوية:

"إنه التاريخ القصصي والمتعقل لدور المرأة وطابعها لدى العرب قبل وبعد محمد، وبدأ بحكايات العرب عن ملكة سبأ،

(1) الفقرة الثالثة من الخطاب تتناقض مع ملاحظات رينان.

ثم دخل على أرضية تاريخية وعرض مكانة المرأة في القبائل الصحراوية القديمة وتعليمها وتأثيرها ومزاياها مصاحباً كل عرض بطرفة وشعر، ويشرح بعد ذلك التغيير الذي أدخله الإسلام على وضع المرأة، ويتبع هذه القصة حتى الخليفة المأمون، ولم يكمل لأن النساء – اعتباراً من هذه الحقبة – حُرمن من كافة الحقوق لدى المسلمين".

"كل ذلك تم سرده في أسلوب حسي وفياض؛ بل ومستفيض في أكثر الأحيان وتلقائي في بعض الأحيان ما يشكل كتاباً تعليمياً مشيراً إلى جانب مجهول من حياة العرب".

"ولا يذكر المؤلف مصادره أبداً، وأعتقد أن جزءاً كبيراً من القصص الواردة في الأشعار مأخوذ من كتاب الأغاني، وباقيها من بعض هذه الدواوين عن سمات التقاليد المقسمة بصورة عامة إلى فصول يتحدث كل منها عن ميزة أو عيب".[1]

كما ترجم الدكتور بيرون، فضلاً عن ذلك، الناصري وهو أطروحة في علم البيطرة والزردقة العربية لأبي بكر بن بدر نشرت عام 1859.

كما ترجم رواية عربية "سيف التيجان" نحو عام 1862 إلخ، ... إلخ.

وكما ترون فإن نشاطه الأدبى لم يتباطأ لعدد كبير من السنوات.

---

(1) سبعة وعشرون عاماً من تاريخ الدراسات الشرقية بقلم ج. مول – باريس رينفالد – 1880 – جزء 2 ص 238.

## ثالثاً

تمتد الخطابات التي أقدمها لكم من 10 أغسطس 1836 حتى 2 أكتوبر 1854، ويبلغ عددها، كما قلت، أربعة عشر خطاباً يتحدث فيها بصورة عامة عن ترجماته.

وفى الخطابات الأولى يتحدث عن مستشرق آخر هو فولجونس فرينل Fulgence Fresnel الذي ولد يوم 15 أبريل عام 1795 وتوفي في بغداد في 30 نوفمبر عام 1855.

ومتحدثاً عن حياة السيد فرينل يقول السيد جى. مول: "كان رجلاً فريداً وموهوباً، وذا شخصية لطيفة وحوار شيق وكرم مبالغ فيه وروح مرحة ومليئة بحيوية نادرة وفصاحة مدهشة، وترك أثراً في العلم لا يمكن محوه أبداً، ولكنه لم يحظ بالمجد اللائق بموهبته وكل السعادة التي تستحقها روحه لأنه لم يتمكن قط من تهذيب روحه، وضبط عقله.[1]

وكان السيد فرينل ابن خال السيد بروسبير مريميه Prosper Mérimée مستشرقاً ذائع الصيت من مدرسة سيلفستر دو ساسي، وكان أحـــد أنبغ طلابها، جاء إلى مصر في نفس الوقت مع د. بيرون لدراسة اللغة العربية ووضع كل أمواله بمصرف بالإسكندرية نحو عام 1835 وأفلس هذا المصرف ما جعله دون أي موارد، وبفضل الدكتور بيرون والسيد مول وأصدقائهم في فرنسا حصل على منصب قنصل في جدة حيث استطاع أن

(1) 27 عاماً من تاريخ الدراسات الشرقية، الخ، تقرير 23 يونيو 1859.

يسدي خدمات جليلة للعلم وللحجيج الجزائري بسبب الصداقة التي شرفه بها شريف مكة.

وخلال إقامته بقنصلية جدة (1841 – 1842) زار ليون روش Léon Roche مكة باسم الحاج عمر تحت رعاية حكومة الجزائر.

وبعد ذلك نُقل فرينل إلى بغداد حيث وافته المنية كما ذكرنا من قبل.

وفى خطابه الأول (الإسكندرية – 10 أغسطس 1836) طلب السيد بيرون من مول توجيهه في العمل: "حدد لي ما تراه أفضل وأشرف ما يمكن أن أقوم به لأنني فقير ولا ثروة لي سوى مداد قلمى... إن نقاء مبادئك وصداقتك تجعلني أجد فيك مستشاراً، بل وصديقاً مخلصاً بلا أي تردد ...".

وبعد ذلك يجيب بلا شك على طلب من السيد أم. جى. مول كاتباً: "لا أستطيع أن أرسل إليك المعلومات التي تطلبها مني حول التعليم في مصر، عند عودتى إلى القاهرة سوف أعنى بهذا الأمر، إذ أحتاج إلى شيخنا محمد عياد لمعرفة ما يتم تدريسه في الجوامع مثل اتجاه هذا التعليم والمنافع التي يمكن جنيها في المستقبل منه".[1]

وإنني لا أذكر من هذه الخطابات ما لا يخص مصر بصورة مباشرة.

---

(1) خطاب حول المدارس ومطبعة باشا مصر، كتبها بيرون لمول – القاهرة في 22 أكتوبر 1842 (ص 5 إلى 23) الجريدة الآسيوية.

وفي خطابه الثالث المؤرخ 18 سبتمبر 1839 من القاهرة يقول:

"لقد تم ترقيتي لإدارة مدرسة الطب، والشيء الفريد، هو المعلومات التي اكتسبتها في اللغة العربية والتي تتفق واحتياجات التنظيم الحالي للمدرسة، وقد وافق الباشا على الفور على ترقيتي، وسوف يتم تدريس المحاضرات من الآن فصاعداً دون اللجوء إلى مترجمين، فخريجو مدرسة أبو زعبل سافروا لاستكمال دراستهم في باريس وحصلوا على لقب أستاذ، وبالضرورة فإنه بغية ممارسة الرقابة اللازمة والمتابعة المستمرة وجود مدير يعرف لغة البلد العامية والفصحى، وهذا الوضع الجديد أتاح لي بعض التحسن المادي؛ أى المالي، ولكن للأسف كل شيء هنا واهن وخاضع للصدفة والأهواء، ولو كنت أستطيع أن أحصل في فرنسا الآن على نصف ما أحصل عليه في مصر لرحلت على الفور".[1]

فى هذه الحقبة، أي نحو نهاية احتلال سوريا (1839)- في الوقت الذي لم يكن هناك أي اتفاق مع تركيا وكان الطرفان يستعدان للحرب، والتي انتهت بالنسبة للمصريين بانتصار نيزيب Nézibe - يبدو أن الباشا الكبير وحكومته كان لديهما الرغبة في تعريب مصر – إذا حُقَّ لي أن أعبر بهذه الطريقة – بإدخال اللغة العربية كأداة للتعلُّم في المدارس، ومع ذلك، وكما سنرى فيما بعد في الرسالة الخامسة، فإن السبب الحقيقي والأساسي لهذا الإجراء كان ببساطة سبباً اقتصادياً لتوفير نفقات المدارس، ومن هنا جاء

(1) يبدو أن السيد بيرون لم يكن يثق في مستقبل مصر ولا في نجم محمد علي كما كان يعتقد رينان – انظر إلى الفقرة السابقة في التقرير الذي ذكرناه.

الاستغناء عن الأساتذة الأوروبيين وإحلال مدرسين مصريين أقل تكلفة مكانهم.

وشعر الدكتور بيرون بالضيق فيما يتعلق بطباعة كتاب الأنساب الذي تكفل بطباعته السيد دوبرا M. Duprat، وأضاف: "سوف أعتمد عليه بالنسبة للمصروفات وتقديرها، ولا أرى سوى عيب واحد فيما يتعلق بالقيام بالطباعة الآن التي أتمنى أن تتم (بأقل تكلفة ممكنة ولكن دون إغفال ما يمكن أن يتطلبه مظهر كتاب)، وهذا ما يندر أن يُدفع لنا وهم مدينون لنا بعام من المرتبات. وإذا كان السيد دوبرا يثق فيَّ بصورة كافية، فإنني أدعوه لطباعة الكتاب فوراً وأعده أنني سأسدد له بالقسط كلما دفعوا لنا مستحقاتنا، وبما أن أمور الباشا سوف تنتظم، فلا أعتقد أن الحكومة ستظل متأخرة في دفع مستحقات موظفيها، وفضلاً عن ذلك فقد زاد مرتبي، إذ كنت أحصل على ثلاث منح والآن أحصل على خمس كل شهر".

ومنذ نحو ثمانين عاماً كنا أقل تشدداً في المطالب عن يومنا هذا فيما يتعلق بخدمة مصر، فإنكم ترون كيف يتصور الدكتور بيرون حقاً نفسه ثريّاً بالعلاوة التي حصل عليها وقدرها عشرة جنيهات (فخمسة جنيهات مصرية كانت تساوي منحة).

ومع ذلك، فلم يكن دفع المرتبات منتظماً، وكان التأخير في دفعها هو بالأحرى القاعدة، فكما ترون لم يتسن لمحمد علي إصلاح المالية إلا بعد عام 1840، عندما أدخل الإصلاحات التي نادى بها والدي أرتين بك الذي استقدم من فرنسا محاسبين مثل ثورون وإيديه ... الخ. والذين وضعوا محاسبات الدولة على

قدم المساواة مع محاسبات الدولة في فرنسا حتى امتياز قناة السويس وقرض 1862 الذي تلاه في عهد سعيد باشا، والقروض المتتالية التي قام بها إسماعيل باشا؛ فإن مالية مصر أصبحت جد منضبطة ومزدهرة لمدة تزيد على خمسة وعشرين عاماً.

وفى خطابه الرابع المؤرخ في القاهرة 9 يناير 1840 يتحدث بيرون عن وفاة شيخ الجامع الأزهر: "توفي لتوه شيخ الإسلام، وقد تم تعيين خلفٍ له - وهو الشيخ الوئيم- وهو شخص فقير في مجال التعليم ولكنه ثري في مجال الأموال، وكتب شيخنا محمد عياد قصيدة بهذه المناسبة، وكان هناك عدد كبير آخر من القصائد، ولكن قصيدته التي تبدو لي الأفضل لم يسمعها مولانا الجديد، وسوف أرسل للجريدة Journal شيئاً عن الظروف التي تشير إلى تغيير شيخ الإسلام وبعض أبيات الشعر المكتوبة بهذه المناسبة".[1]

وفى خطابه الخامس (القاهرة – 28 ديسمبر 1841) تحدث عن الشركة المصرية بالقاهرة حيث كان ينوى نشر عمله عن الأنساب، وبعد ذلك يتحدث عن الموسيقى العربية التي ترجع أصولها إلى اليونانية، وأخيراً كتب في الختام: "دائماً ما تكون شئون مصر في حالة من عدم اليقين، ويعد الاقتصاد في يومنا هذا الكلمة الحكومية الكبيرة، وتعمل الحكومة على الاستغناء عن الموظفين الأوروبيين، ومن باب الاقتصاد أيضاً تم مؤخراً

(1) لم أتمكن من الحصول على هذه الدراسة التي قد تكون لم تكتب أو لم تنشر في الجريدة الآسيوية في حالة كونها قد كتبت.

خفض عدد الدارسين في المدارس، ومدرسة الطب - على سبيل المثال – التي كان يدرس بها 300 دارس أصبحوا الآن 130 فقط، وتم تطبيق هذا التخفيض على كافة المدارس".

"كما قل عدد الجنود بصورة كبيرة، وحالة الجيش غير مزدهرة،[1] ولا يمكن التنبؤ بما يمكن أن ينتج عن الظروف الراهنة، ومنذ شهرين يقيم الباشا في الصعيد وليس هناك أى سياسة جديدة تسرى هنا والصمت يسود كل شيء".

"وفى سوريا يسود النزاع والصراع بين الدروز والموارنة، ورأيت اليوم مسافراً عائداً من سوريا وأكد لي أن الفوضى تسود البلاد هناك، وحتى في نابلس اندلعت الاضطرابات ورفض السكان دفع الضرائب".

كان ذلك بعد معركة نيزيب. واضطر محمد علي إلى إخلاء سوريا تحت ضغط القوى الائتلافية، ولم يكن بحاجة إلى أطباء أو ضباط للعناية بهذا الجيش ومن هنا جاء كل هذا التوفير الذي أشارت خطاباته إليه.

وتشير الأسفار المستمرة لمحمد علي في الأقاليم إلى حرصه على النهوض بالزراعة ووضعها في مقدمة أولوياته، أما عن التناحر بين الدروز والموارنة فإنكم تعرفون أنه لم ينته إلا نحو عام 1860 عن طريق تدخل جيش نابليون الثالث.

---

(1) بعد انتهاء حرب سوريا تم خفض الجيوش بصورة طبيعية واستخدمهم محمد علي في بناء السدود وزراعات الدولة، وكانوا يقومون بزراعة القطن.

وفي الخطاب السادس المكتوب أيضاً في القاهرة بتاريخ 28 مارس 1842 كتب: "لا يزال وضع الأعمال على ما هو عليه منذ عدة شهور، ويتنقل الباشا بصورة مستمرة في الأقاليم بغية دفع أعمال الزراعة، وفي الوقت الراهن فهو في مصر الدنيا [الصعيد] حيث يشجع على بذر كميات كبيرة من السمسم".

"وقد تم إقرار نوع من المنح على كافة الأدوات الاستهلاكية التي تدخل القاهرة، وفضلاً عن ذلك تم فرض ضريبة جديدة في مصر، وهي ضريبة نسبية على المنازل.[1]

كما تم فرض ضريبة أخرى كبيرة على العبيد، فأي عبد أسود سواء أكان رجلاً أو امرأة يتم استقدامه إلى مصر أو خروجه منها يُفرض عليه ضريبة قدرها 300 قرش[2]، ويُفرض على أي عبد حبشي ضريبة قيمتها 500 قرش كرسم للدخول والبيع، وبهذه

(1) يقول بيرون إن هذه الضريبة تبلغ 12/1 من قيمة إيجار المنازل المدن ولم تطبق على العمارات في القاهرة والإسكندرية لرفعها من الانهيار الذي تسببت فيه الثورات والحروب المتتالية حتى بعد حرب سوريا.

(2) في مذكراته غير المنشورة والمودعة في شكل مخطوطات بالمتحف البريطاني بلندن يتحدث حككيان بك عن هذه الضريبة بتاريخ 11 نوفمبر 1843 "فرض الوالى في البداية ضريبة على استيراد كل عبد تقدر بـ 300 قرش ولكن هذه الضريبة لم تؤثر على الاستيراد ... وقد حان الوقت كما يرى الباشا لإلغاء العبودية، فالإنجليز يراقبون ويمنعون نقلهم بحراً بين أفريقيا والجزيرة العربية، ومنيلكي أحمد باشا الذي سافر ليعمل حاكماً عاماً بالسودان صارم ومصمم ولن يتأثر بأى شيء في أداء واجبه.

الطريقة تم مهاجمة تجارة الرقيق، بل التأثير بقوة عليها، وهى التجارة التي أجازها الإسلام، بل ونظمها، والتي لم يكن ممكنا للباشا إلغاؤها دون الإساءة إلى تعصب المسلمين الأتقياء ومداهنتهم ولاسيما العلماء. وكانت هذه التجارة إحدى مخازي الإسلام، وكان الباشا يريد القضاء عليها إن أمكن، ولإيجاد تجارة بديلة يقوم بها ذات الأفراد فقد ترك الباشا تجارة العاج والصمغ واستيرادهما دون فرض أي رسوم أو ضرائب أو أي شيء عليها".

"أما بالنسبة للجيش فلا يهتم به الباشا أو أى شخص آخر، فالجيش ينكمش كل يوم وعدد المسرحين كبير نسبياً".[1]

"غاب إبراهيم باشا عن هنا منذ عدة أشهر، وهو لا يهتم إلا بالزراعة وكذلك الحال بالنسبة لعباس باشا، فهو يسافر لتفقد أملاكه ومزارع الحكومة، ومحمد علي يساعد على نمو الزراعة بحيث لا يوجد هنا أي شخص من الحكومة، ومع ذلك، يبدو أن السلطان يقوم ببعض حركات الزهو... فضلاً عن ذلك أرسل 15,000 أرنؤط إلى سوريا لإعادة النظام، وإذا كان الأمر كذلك فسوف تدخل سوريا مرة أخرى في حالة ثورة لأن الأرنؤط ليسوا

(1) فيما يتعلق بهذا الازدراء إزاء الجيش فبعد الحرب والانسحاب من سوريا حكى لي كبار جنود هذا الجيش إنه عند عودتهم من سوريا استقبلهم محمد علي في السلاملك بالقلعة وهو جالس على ديوان ناظراً عبر نافذة إلى الخارج، وأظهر استياءه بعدم النظر إلى جنوده وهم يمرون أمامه، وكان من عادة محمد علي في حفلات الاستقبال الحديث مع من يأتي لتحيته بكلمات ودية وأحياناً كان يعنفهم بطريقة أبوية ولكن في هذه المرة لم يلق أحد أي كلمة ودية من الوالي.

جنوداً ولكن لصوص منظمون، ولكننا هنا، وبالنسبة لحالة الحرب نشعر براحة كبيرة".

وفى خطابه السابع بتاريخ القاهرة في 28 أكتوبر 1842 نجد الفقرة التالية: "تُطلب مني شروح عن "الجمعية المصرية Société Egyptienne" التي أتولى فيها منصب الأمين بالنسبة للمراسلات الفرنسية، عليك أن تلاحظ بداية أنه يوجد هنا في القاهرة جمعية أخرى باسم "الجمعية الأدبية"، وهي جزء صغير من أعضاء جمعيتنا التي تفككت بسبب خلافات فردية بين الأمين العام السابق للجماعة السيد أبوت ورئيسها السابق السيد والن Walne، فهناك بعض الأشخاص – نحو ستين شخصاً – انضموا لهذه الجمعية وتكفلوا بمصروفات الإنشاء، ومن المفترض أن تقدم مطبوعات، ولاسيما باللغة الهيروغليفية، وتسعى لتكوين مكتبة، أما بالنسبة للجمعية المصرية فقد تأسست منذ ست سنوات وكانت تهدف من حيث المبدأ إلى جمع –عن طريق الاشتراك السنوي للأعضاء (ويقدر الاشتراك بمبلغ 105 قروش) - أكبر عدد ممكن من الكتب ولاسيما الكتب التي تتعلق بالشرق ولها علاقة ما بالتاريخ والجغرافيا والدين والتقاليد... الخ، ويستفيد مسافرو كافة الدول الممثلة بعضو أو يتلقى مجرد تذكرة دخول من عضو بالاطلاع على كتب المكتبة في المبنى المقامة فيه، وبصورة عامة، يترك المسافرون في الخزانة كهدية بضعة جنيهات فضلاً عن الاشتراك، وكل الأموال المجمعة تستخدم في مواجهة مصروفات الجمعية، والآن، وبعد تطور الجمعية وبفضل أعضائها المقيمين والأجانب..

الخ، سيُكرس من الآن فصاعداً جزءٌ من أموالها لطباعة بحث يبدو لي مفيداً جداً حول الموقع الحقيقى لبحيرة قارون بالفيوم وحدودها ووجهتها الأصلية في فياضانات النيل.. الخ... ومؤلف هذا العمل هو السيد لينان Linant الرئيس الحالي للجمعية المصرية، وما يؤخر نشر هذا العمل هو الطباعة الحجرية لرسم خريطة مرفقة بالبحث".

"نقلت للجمعية ذلك الجزء من رسالتكم الذي تقدمون لنا فيه مساعدة الجمعية الآسيوية Société Asiatique لتيسير بيع الأعمال التي ننشرها. وقد قبلنا عرضكم الخير بحماسة وكُلِّفت بأن أنقل لكم شكر الجمعية وأن أعرب عن امتنانها، ويتعين – كما تقولون في رسالتكم – أن تُكَوِّنَ كافة الجمعيات التي تهتم بالدراسات والأعمال عن الشرق ائتلافا في صورة جهاز علمي لكي تقدم لبعضها البعض العون المتبادل لتحييد -في نهاية المطاف- مضايقات الأفراد الذين لا يبذلون أي جهد إلا لإلحاق الضرر بمطبوعات الأفراد الذين لا يريدون صداقتهم أو حمايتهم المدللة والظالمة، ولذلك سوف نرسل إليكم كافة المطبوعات الصادرة عن جمعيتنا لمساعدتنا على بيعها، وإذا كنت قد فهمت أنه يروقك أن تكون عضواً في جمعيتنا الصغيرة فإنني أقدم لك عرضاً بذلك".[1]

(1) ولإعطائكم فكرة عما كانت عليه الحركة الفكرية في المجتمع الأوروبى بالقاهرة نحو عام 1835 أورد لكـــم فقـــرة من كتاب رحالة إنجليزى C. Rochfort Scotts, Captain H. Prayal Staff Corps بعنوان Rambles in Egypt and Candies – لندن 1837 – جزئين: (الجزء 1 ص216)، =

وتعد هذه الفقرة غريبة لأننا نرى فيها بذرة فكرة مؤتمرات المستشرقين التي تكررت فيما بعد وتم تنفيذها بعد ذلك بفترة طويلة. وبالنسبة للجمعية المصرية فقد حُلَّتْ من تلقاء نفسها كما تعرفون بسبب غياب عناصر الحفاظ عليها وبسبب الخلافات الداخلية التي ظهرت، وكما قلت لكم في موضع آخر فإن الكتب التي كانت تشكل مكتبتها تم وضعها في المكتبة الخديوية عام 1873 أو في عام 1874 وذلك بناء على قرار آخر للأعضاء الأحياء، وهم السيد حكيكيان بك والسيد توربون Thurbon والسيد كانى Kany.

وبعد ذلك، وفي ذات الرسالة استوقفتنى الفقرة التالية: "أرسل إليك مذكرة كتابي الأصول باللغة التركية والفارسية اللذين طُبعا في بولاق وأعتقد أنها كاملة، وإذا كنت تراها مناسبة ونافعة فعليك بطباعة هذه الرسالة في الجريدة الآسيوية، وقد نحيتها

---

= أن المسافر الذي يهدف من رحلته التسلية يجب أن يكتفى (فى القاهرة) بالجلوس وهو مربع على كنبه Olivain والتدخين طوال السهرة، وبالنسبة للكتب فباستثناء الكتب العادية التي يمكن أن نجدها لدى صاحب مكتبة إيطالى من الدرجة الثالثة، ليس ممكناً الحصول على أي كتاب تحت أي ظروف، أما بالنسبة للصحف فهي لا تصدر للأسف سوى مرة واحدة شهرياً وفي هامش بخصوص هذه الفقرة من النص ذي الدلالات كتب عام 1837 عند نشر كتابه: "مؤخراً تم إنشاء جمعية باسم المجتمع المصري بناء على مبادرة من بعض المقيمين من الأوروبيين في القاهرة وسوف تقدم مزايا كبيرة للمسافرين في المستقبل، ففضلاً عن موارد مكتبة مرجعية ستكون الجمعية مركزاً للاجتماعات الاجتماعية. فأمين الجمعية السيد Walne طبيب إنجليزي".

جانباً على أمل أن تنشرها في الجريدة، وإذا نشرتها أرسل لي العدد واطبع لي بعض النسخ على حدة إذ إننى أريد وضعها هنا".[1]

يختتم الدكتور بيرون هذه الرسالة قائلاً: "بالنسبة لنا في مصر فإن الأوضاع على ما هي عليه، لا نفهم أي شيء، ولنا متأخرات تبلغ 26 شهراً من المرتب، وما يزيد الأمور سوءاً هو تفشي وباء حيواني قضى على كافة العجول والأبقار، فهناك قرى قضى الوباء على آخر حيوان بها، وفضلاً عن ذلك فارتفاع النيل مخيف ويقضي على الريف بسبب انقطاع السدود، وهناك قرى اجتاحتها مياه الفيضان ودمرتها".[2]

وأعتقد أننا نعيش أكبر وباء حيواني والأول في تاريخه الذي دمر وادي النيل، وفي أعقاب هذا الوباء استورد إبراهيم باشا من حوران بسوريا ثيران وأبقاراً والتي باختلاطها مع فصيلة العجول المنوفية ولدت جنساً من العجول كان معروفاً في شبابي باسم بهايم الباشا.

---

(1) الكتالوج العام للكتب العربية والفارسية والتركية المطبوعة في بولاق بمصر منذ دخول المطبعة في مصر (الجريدة الآسيوية، 1843، السلسلة 4 – جزء 2 ص 24 : 30.

(2) وفقاً للتوفيقات الإلهامية للواء محمد مختار باشا فإن أقصى ارتفاع تم تسجيلـــه عام 1842 بمقياس النيل بالروضة بلغ 19م 83 سم، وهو أقـل بـ 0،4 سم من الارتفاع الأقصى لعام 1909، وإذا كان فيضان 1812 قد أحدث خسائر ضخمة في الريف بالرغم من كونه أقل قوة من فيضان هذا العام فيتعين كما قلنا الاعتقاد بأن السدود في ذلك الوقت لم تكن معتنى بها كما هو الحال في يومنا هذا.

وفي رسالته الثامنة من القاهرة بتاريخ 14 مايو 1844 يتحدث الدكتور بيرون عن رغبته في القيام بجولة في باريس في نهاية الشتاء التالي، ويقول: "سوف أحصل على أجازة لمدة 6 أشهر وهذا أمر يحدث ويتم الموافقة عليه بسهولة، ولكن عليك الاحتفاظ بسرية هذا الموضوع، لا أريد أن يعرف أحد عن هذا الموضوع قبل حدوثه".

وفى رسالته التاسعة بتاريخ القاهرة في 14 يناير 1845 يتحدث عن زيارة السيد، أمبار ولاسيما طباعة القاموس العربي للفيروزابادى، وأضاف: "أعتقد أن هذا العمل سيكون مفيداً؛ ليس فقط للمستعربين الأوروبيين فحسب؛ بل للمسلمين الذين يقرأون، ربما شكل إنتاج هذا القاموس قراراً بأن يعمل أو على الأقل أن يقرأ عدد من العلماء، وهؤلاء العلماء الذين لا يملكون من العلم سوى اسمهم كسالى إلى أقصى حد وجهلاء إلى أبعد حد، وتفانيهم في الجهل يخمدهم في تواكل مُخزٍ، إنهم لا يعرفون حتى عناوين الكتب العربية العادية، ومع ذلك، فهم يعتقدون معرفة كل شيء أو على الأقل معرفة أشياء بقدر كاف، وليس من بينهم كاتب في الشرق قادر على تأليف كتاب! أظن أنني أخطئ، فهم يكررون ويعيدون التعليق على فقههم؛ ويقرأون القواعد، وأكثرهم رقياً يعطون دروساً في المنطق من هذا المخزون السوفسطائى الذي خلفه أرسطو، الذي اضطر في زمنه إلى صناعة أسلحة دقيقة لمحاربة التفصيلات الدقيقة للسفسطائيين، والأكثر رقياً من بينهم يعطون دروساً عن وحدانية الرب ويتعجبون من أنهم وجدوا – بعد

أن نَصَّ القرآن – أن الله ليس له زوجة ولا ولد! والعلماء الأكثر ذكاء والأكثر بلاغة يكتبون الشعر... ويا له من شعر يا عزيزي...! زجل على نسق الحريري، وهو أقصى صيحات الكتابة، وزد على ذلك هذا الشغف المفرط لقطع التأريخ؛ فقطعة التأريخ هي أرقى الفنون، ومن لم يكتب قطعة تأريخ لا يملك موهبة ولم يفعل شيئاً".

"وبالنسبة للقاموس الذي نتحدث عنه، هل تعتقد أن العلماء يملكون قاموساً؟ لعلك مخطئ! ليس هناك بالتأكيد عشرة علماء يملكون قاموساً في القاهرة، بل في مصر كلها، وبالتالي، ليس هناك ربما أكثر من عشرة من هؤلاء العلماء يستطيعون استخدام قاموس عربي، فهم لا يعرفون نظام ترتيب الكلمات. أقسم لك على ذلك وهو أمر لا يصدقه عقل".

"فلنعط إذن قاموساً للعلماء"[1].

وأيا كانت قسوة هذا النقد فهو أقل قسوة من نقد عبد الرحمن الجبرتي الذي سبقه بمائة عام، والذي روى أن أحمد باشا، الذي حكم مصر حتى 10 شوال 1163 (1750) كان رجل فضيلة ومبادئ وكان يتذوق علوم الرياضيات، وعندما أقام في القلعة استقبل كبار علماء هذه الحقبة، وهم الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر، والشيخ سالم النفراوي، والشيخ سليمان

(1) رسائل الدكتور بيرون من القاهرة والإسكندرية إلى جول مول بباريس- الرسالة رقم 9.

المنصوري، وناقش معهم العديد من المسائل العلمية ولكن عندما عرج على الرياضيات سكتوا في الحال، وانتهوا إلى الاعتراف له بأنهم لا يفقهون شيئاً في هذا العلم، واستغرب الباشا وظل صامتاً، ولكن، كرر الحديث فيما بعد مع الشيخ عبد الله، وكانت المناسبة عندما كان هذا الأخير مكلفاً بإمامة مسجد القصر، وبهذه الصفة كان يتردد كل يوم جمعة على القصر، وكان يدخل على الباشا ويتحاور معه قرابة ساعة من الوقت، وكان يأكل أحياناً معه ثم يتوجه إلى المسجد، وكان الباشا يلحق به بعد بضع لحظات مع الحاشية، وكان الإمام يصلي بهم ويدعو للسلطان والباشا، وبعد انتهاء الصلاة كان الباشا يعود إلى محل إقامته والشيخ يعود إلى منزله، ولكن، في أحد أيام الجمعة قال الباشا، وهو في معرض حديثه مع الشيخ عبد الله: "المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم، وكنت في غاية الشوق للمجيء إليها فلما جئتها وجدتها كما قيل: "تسمع بالمعيدى خيرٌ من أن تراه"... فرد عليه الشيخ عبد الله: "هي يا مولاى كما سمعتم معدن العلوم والمعارف"، فقال: وأين هي؟ وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبي من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئاً، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل، ونبذتم المقاصد. فقال له: نحن لسنا أعظم علمائها، وإنما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم لدى أرباب الدولة والحكام، وغالب أهل الازهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث" إلخ...إلخ. وطال الحديث

بين الرجلين إلى أن قال الشيخ: "وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقيه، كرقه الطبيعة وحسن الوضع، والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء، وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم النابغية لذلك.....الخ". ثم دله الشيخ على الشيخ حسن الجبرتي والد المؤرخ، وكان من المشتغلين بهذه العلوم، فاستدعاه الباشا وقربه إليه "ولازم المطالعة عليه مدة ولايته، وكان يقول: "لو لم أغنم من مصر إلا اجتماعي بهذا الأستاذ لكفاني..."، ويختتم الجبرتي هذه القصة بقوله: "وكان المرحوم الشيخ عبدالله الشبراوي كلما التقى بالمرحوم الوالد يقول له: "سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا، فإنه لولا وجودك كنا جميعاً عنده حميراً"[1]

هذان النقدان لحالة تقدم العلوم في مصر نافعان لمعرفة وقياس الطريق الذي قطعته منذ منتصف القرن الماضي والقرن قبل الماضي حتى يومنا هذا.

وفي الرسالة الثانية عشرة التي كتبها في القاهرة بتاريخ 12 يوليو 1845 يتحدث الدكتور بيرون أيضاً عن قاموس الفيروزآبادى الذي لا يستطيع طباعته دون تصريح رسمي من الباشا وفقاً لمرسوم محمد علي بتاريخ 13 يوليو 1823 الذي يمنع نشر كتاب بمطبعة بولاق إلا بإذن من الباشا.

(1) الجبرتى: عجائب الآثار- القاهرة- 1322هـ- ج1 – ص 193-194.

وأثمر عمله بمدرسة الطب عن ترجمة مجلدين للكيمياء أرسلهما هبةً لجمعيات علمية مختلفة في فرنسا ووعد بإرسال المجلد الثالث بعد ذلك مباشرة.

وأخيراً اختتم خطابه معلناً للسيد ج. مول وصول الدوق دي مونبونسيه duc de Montpensier للقاهرة حيث تم استقباله – كما قال – بتشريف كبير، كما أعلن في 13 يوليو 1845 سفر الأمير إلى صعيد مصر حيث يزور طيبة وربما سافر جنوباً أكثر من ذلك.

فمنذ أقل من خمسين عاماً قبل هذه الحقبة كان الأمراء أنفسهم أقل رتبة عما نحن عليه الآن بما أنهم كانوا يسافرون إلى صعيد مصر في رحلات في أثناء الصيف، والحق أيضاً أنهم كانوا يقومون بأسفارهم في الفترة التي يبدأ النيل في الصعود وحيث لا توجد مياه في النهر.

والرسالة الحادية عشرة بتاريخ 5 أكتوبر 1845 تبدأ بهذه الكلمات:

"أرسل لكم طيه ملخص الجلسة السنوية للجمعية المصرية، أي التقرير الذي قرأته خلال هذه الجلسة وكلمة السيد أبكان Abeken أحد أعضاء اللجنة البروسية الذي يقوم بأبحاث تحت إشراف السيد ليبسيوس Lepsius حول آثار مصر القديمة وركامها، وهذه المداخلة أُلقيت باللغة الإنجليزية".

وتعرفون العمل الضخم الذي أنتجته هذه اللجنة في أثناء إقامتها عدة سنوات في مصر تحت قيادة دي ليبسيوس، ومن

المؤكد أنكم لاحظتم جميعاً النقوش الهيروغليفية الموجودة على مدخل الهرم الأكبر على شرف ملك بروسيا والتي نقشتها هذه اللجنة كذكرى لمروره في مصر، كما نقشت بعثة ديزيكس Desaix باللغة الفرنسية على باب فيلة ذكرى مرورها على مصر.

ورسالته الثانية عشرة بتاريخ 25 يوليو 1853 حيث تشغله عودته إلى مصر.

ورسالته الثالثة عشرة بتاريخ 19 يناير 1854، ويشير فيها إلى انتهاء مطبعة بولاق من طباعة تاريخ ووصف مصر للمقريزي، وأضاف: "هذا العمل كبير الأهمية كما تعرفون، وهو مجموع في مجلدين ضخمين، وسوف يُعرض للبيع في غضون خمسة عشر يوماً...". ويضيف: "وسيتراوح سعر هذا العمل بين 70 إلى 75 فرنكاً، إن سعر المخطوط ذي الكتابة العادية والمليء بالأخطاء يساوي أيضاً ما بين مائتين إلى ثلاث مائة فرنك".

وكانت مطابع بولاق قد نشرت العام السابق (1853) الكتلاني، وهو تعليق على أحاديث الرسول.

وهذان العملان اللذان نُشرا في ذات الوقت تقريباً حققا انتشاراً مختلفاً ويعود ذلك بلا شك إلى حالة الثقافة الفكرية للمصريين وعقليتهم، وكان المقريزى – إن لم أكن مخطئاً – في نسخته الأولى بينما كان الكتلاني في نسخته العاشرة.

وفى هذه الرسالة يتحدث السيد بيرون عن المستشرق ألفريد دي كريمر Alfred de Kremer الذي عرفه كثير منكم هنا في سن

ناضج بوصفه وزيراً مفوضاً ومديراً لصندوق الدين العام للنمسا.

وفى هذه الفترة كان الدكتور بيرون قد ترك مدرسة الطب وتم ندبه كطبيب صحة بالإسكندرية.

والرسالة الرابعة عشرة والأخيرة لا تتناول سوى أعماله الأدبية.

أتمنى أن تكون هذه الصفحات قد أعجبتكم، أما بالنسبة للرسائل الخطية للدكتور بيرون فأعتقد أنني مترجم مشاعر السيد أو.دي. مول الذي كان يأمل أن ينقلها المجمع المصري إلى المجمع الفرنسي لحفظها في أرشيفات المجمع مع أوراق جي. مول، ولذا أودعها في مكتب المجمع فضلاً عن نسختين مكتوبتين على الآلة الكاتبة لهذه الرسائل الأصلية.

**يعقوب أرتين باشا**

## ثانياً: دراسة الدكتور جمال الدين الشيال

هذه دراسة تحليلية ونقدية أعدها الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ونشرت في مجلة كلية الآداب جامعة فاروق الأول (الإسكندرية) – المجلد الثانى عام 1944، (ص 196 - 215)، بعنوان "دكتور برون (Dr. Perron) والشيخان محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي"، وقد اعتمد الدكتور الشيال في جزء كبير من هذه الدراسة على مقدمة يعقوب أرتين باشا لرسائل بيرون، ونجد الجزء الأول منها يقدم ذات الأفكار عن بيرون وجهوده العلمية وآرائه عن الحياة السياسية والفكرية في مصر، بيد أن الدكتور الشيال أفرد جزءاً ثانياً في دراسته تناول فيه التعريف بالشيخين محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي وحياتهما وإنتاجهما العلمي، ثم خصص جزءاً ثالثاً يتناول جهود هذا الثالوث في التأليف والترجمة والنشر.

وقد رأينا تقديم هذا الجزء المهم وهذه الإضافة المتميزة من دراسة الدكتور الشيال من عدد المجلة المذكورة:

«عالمان فقط من علماء مصر الذين اتصل بهم "برون" حازا إعجابه، وتتلمذ عليهما، وأشار إليهما في خطاباته بالإعجاب، واعترف لهما بالأستاذية، فقد أعاناه وساعداه في بحوثه، وترجماته العلمية المختلفة، هذان هما: الشيخ محمد عياد الطنطاوي، والشيخ محمد عمر التونسي.

**الشيخ محمد عياد الطنطاوي :**

هو الشيخ محمد بن سعيد بن سليمان عياد المرحومي الطندتائي الشافعي، ولد سنة 1225 هـ (1810 م) في نجريد، وهي قرية صغيرة قريبة من طنطا، وتوفي في 23 ربيع الثاني سنة 1278 (29 أكتوبر سنة 1861) في "سانت بطرسبرج".

كان أبوه تاجراً متنقلاً من سكان محلة مرحوم، ولما بلغ محمد عياد السادسة من عمره التحق بمكتب في طنطا حيث تلقى علومه الأولى، فلما بلغ الثالثة عشرة من عمره سافر إلى القاهرة فأقام مع عمه، والتحق بالأزهر فدرس على الشيخ إبراهيم الباجوري (+1276)، والشيخ حسن العطار (+1250)، والشيخ إبراهيم السقا (+1298)، وغيرهم؛ ونبغ من زملائه في عهد التلمذة نفر كثيرون أهمهم: رفاعة الطهطاوى زعيم النهضة العلمية في مصر في عهد محمد علي، والشيخ إبراهيم الدسوقي أحد محررى الكتب المترجمة ومصححيها في ذلك العصر، وأستاذ المستشرق الكبير "مستر لين Mr. Lane".

... وقد تتلمذ عليه في تلك الفترة نفر من المستشرقين المقيمين في مصر، أو الوافدين عليها، منهم: دكتور "برون" و"فرينل"[1]

(1) هو صديق حميم للدكتور "برون" وهو أول من عرف علماء أوروبا بالشيخ الطنطاوي انظر J. A. 3rd ser. V, 1828. وقد كان أيضاً صلة التعارف بين الشيخ الدسوقى و"مستر لين".

و"ج. فيل G. Weil" و"دكتور برنر Dr. Pruner" و"ر. فراهن R. Frahn"[1].

وقد أشاد "فراهن" بذكر الشيخ الطنطاوي في روسيا فدعته نظارة خارجيتها ليُدَرِّسَ اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية "Institut des Langues orientales" في "سانت بطرسبرج". وكان الوسيط بين نظارة الخارجية والشيخ لإقناعه بالسفر "الخواجة بكتي" ترجمان القنصلية الروسية بالقاهرة "Agent Consulaire".

وفى سنة 1265 (1848) عُيِّنَ الطنطاوي أستاذاً فوق العادة في الجامعة الروسية، وفى سنة 1271 هـ (1854) عُيِّنَ أستاذاً عادياً، واختير العالم الروسي "نفروتسكي" ليكون مساعداً له.

ومن أنبغ تلاميذه هناك في الفترة بين 1840 و1842 المستشرق الفنلندى "ج. أ. فالين G. A. Wallin"[2] الذي غدا فيما بعد أستاذاً في جامعة Helsingfors وظل يراسل أستاذه حتى مات.

---

(1) كان أبوه أول مدير للمتحف الآسيوى في سانت بطرسبرج.

(2) ارتحل هذا العالم في حياته إلى بلاد العرب ومصر وسوريا، ومكث بها سنوات يحمل اسم "عبد الولىّ" وقد تبودلت الرسائل بينه وبين أستاذه الطنطاوي مدة ما؛ وطبع "فالن" بعض هذه الرسائل مترجماً إلى اللغة الأسوجية، ويوجد البعض الآخر في مكتبة الجامعة في Helsingfors عاصمة فنلندا.

**الشيخ محمد عمر التونسي :**

هو محمد بن عمر بن سليمان التونسي أصلاً ومولداً، ولد بتـونس في الساعة الثالثة من يوم الجمعة منتصف ذي القعدة سنة 1204هـ (27 يوليو سنة 1789م) وأمه مصرية، حملت به في مصر أيام مجاورة أبيه بالأزهر لطلب العلم.

.....

## هذا كتاب تشحيذ الأذهان

**بسيرة بلاد العرب والسودان**

**لمؤلفه الأخ الصديق**

**محمد بن السيد عمر التونسي**

**ابن سليمان**

**عفا عنه**

محتوى الصفحة الأولى من كتاب "تشحيذ الأذهان"

.....

وفى السنوات الأخيرة من حياته اشتغل التونسي بالتدريس فكان يلقي درساً في الحديث بمسجد السيدة زينب في يوم الجمعة من كـــل أسبـــوع، وبقي على ذلك إلى أن توفي سنة 1274هـ (1857م).

هذا موجز عن حياة الشيخين اللذين تتلمذ عليهما "برُّون" واستعان بهما في أعماله وبحوثه العلمية؛ فهو إذا ذكر أولهما في

أي من خطاباته قال دائماً: "شيخنا محمد عياد[1] Notre Schaykh Mohammed Ayyad" بل إنه ليصفه بالجرأة والشجاعة، إذ ذكره بعد سفره إلى الروسيا؛ فيقول: "شيخنا الشجاع عياد شيخي وشيخ فرينل القديم: Notre brave Cheikh Aiad, l'ancien Cheikh de M. Fresnel et de moi".

وقد كتب مرة إلى صديقه "مول" يعده بإرسال مقال له عن التعليم في مصر، ثم يعتذر إليه عن تأخيره، لأنه ينتظر حتى يعود إلى القاهرة، فهو محتاج إلى شيخه محمد عياد ليمده بالمعلومات عن نظام التعليم في المساجد، وعن اتجاه هذا التعليم، والفوائد التي يظن أنها سوف تُجنى منه في المستقبل.

وفي مرة أخرى ذكر "برُّون" لصديقه "مول" أنه مرسل إليه بحثاً صغيراً مكتوباً بالعربية، ومترجماً إلى الفرنسية عن أسماء الأعلام العربية – أصولها واشتقاقاتها –، ثم ذكر له أن هذا البحث كان قد كتبه له أستاذه الشيخ محمد عيَّاد، إجابة لطلبه[2].

---

(1) Lettres du Dr. Perron, PP. 11, 47, 64, 113 4, 3, وانظر أيضاً: Perron, Lettre sur les éscoles. etc. J. a. 1843, P. 9 حيث يقول عن أستاذيه: "وأنا في الحقيقة لا أعرف بين الشيوخ في مصر من يقرأ التاريخ أو له إلمام به غير الشيخ التونسي مؤلف رحلة – السودان – والشيخ التميمي المغربي المعلم الخاص لأولاد إبراهيم باشا، وكان هنا أيضاً عالم ممتاز ومثقف حقاً هو الشيخ محمد عياد الذي ارتحل إلى "سانت بطرسبرج" منذ ثلاث سنوات حيث استدعاه الإمبراطور، وحيث ينظر إليه نظرة تقدير واعتبار".

(2) Lettres du Dr. Perron, pp. 11, 47, 64, 113

وهو إذا ذكر التونسي ذكره بالتجلَّة والاحترام، فهو يقول دائماً: "شيخي القديم التونسي[1] "Mon ancien Cheikh El. Tounsy"، وقد بادله التونسي تقديراً بتقدير، واحتراماً باحترام، فهو عنده "أبرع أهل زمانه حذاقة وفهماً، وأذكى أهل عصره صناعة وعلماً، معلم الكيمياء الحكيم "برُّون" الفرنساوي[2]"، وهو "اللوذعي الأديب، والماهر الطبيب اللبيب، أحذق أقرانه، وأنبه إخوانه، المعلم برُّون الفرنساوي، الحكيم النبيه الكيماوي، ذو الذهن الوقاد، والتعليم الذي كل تلميذ منه استفاد[3]"، وهو أيضاً: "الماهر في جميع الفنون، ناظر مدرسة الطب البشرى الشهير برُّون ".

**جمال الدين الشيال»**

(1) Op. Cit. PP. 89, 107

(2) انظر رحلة دارفور للتونسي، ص 5 – 6؛ وعلي مبارك، الخطط التوفيقية ج 17، ص37.

(3) انظر: برون، الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية، 3 أجزاء كبار، بولاق سنة 1258 – 1260، مقدمتا الجزئين الأول والثانى.

# ثبت ببليوجرافي مختصر بأهم أعمال نيكولا بيرون وبالمواقع الشبكية التي تخصه أو تتعلق به

## قائمة أعمال نيكولا بيرون:


**الطبيعة** : الأزهار البديعة في علم الطبيعة. تأليف نيكولا بيرون - ترجمة يوحنا عنحورى- مطبعة بولاق- القاهرة- 1838.

**الكيميا** : الجواهر السنية في الأعمال الكيماوية. تأليف نيكولا بيرون- مطبعة بولاق- القاهرة – (1842- 1844).

- Tableau historique des sciences philosophiques et morales, depuis leur origine jusqu'à nos jours. Bureau de l'encyclopédie portative- Paris-1829.
- De l'Egypte, Leçons d'histoire- Tous les libraires du Palais-Royal et les marchands de nouveautés- .Paris 1832
- Lettre sur l'histoire des arabes avant l'islamisme, de l'époque du petit Tobba, du siège de Médine et de l'introduction du judaïsme dans l'Yaman- Extrait du Journal asiatique-III$^{e}$ série-Imprimerie Royale- Paris- 1838
- Lettre sur les poètes Tarafah et Al- Moutalammis, Extrait du "Journal asiatique", 3$^{e}$ série Imprimerie royale- Paris- 1841.
- Légendes orientales- Aperçu historique sur les temps antéislamiques, d'après les docteurs musulmans, La Revue indépendante, t 4, août 1842 – pp 427-456

- Lettre sur les écoles de l'imprimerie du Pacha d'Egypte- (avec Théodore X Bianchi)-Journal asiatique- juillet-août 1843.
- Légende orientale, la Reine de Saba- Extrait de l'"Illustration" des 23 et 30 août -imprimerie de Plon frères- Paris- 1850.
- Récits arabes- Revue Orientale- Janvier 1852-PP 1-23.
- Joseph, fils de Jacob, légende arabe- Librairie nouvelle- Paris- 1853.
- Femmes arabes avant et depuis l'islamisme- Librairie nouvelle- Paris- 1858.
- L'islamisme, son institution, son influence et son avenir – E. Leroux – Paris- 1877.
- Lettres du Dr. Perron, du Caire et d'Alexandrie, à Jules Mohl, à Paris, 1838 1854- Finck et Baylaender – Le Caire – 1911.

**Traductions**

- Lettre sur Antar in Journal Asiatique- Imprimerie royale- Paris- décembre 1840.
- Précis de jurisprudence musulmane, ou Principes de législation musulmane civile et religieuse selon le rite malékite par Khalil ibn Ishaq al-Jundi I- VI- Imprimerie nationale- Paris- 1841.
- Précis de jurisprudence musulmane, selon le rite Malékite- 7 vol- Imprimerie Nationale- Paris- 1848-1854.
- Table analytique et alphabétique du Précis de jurisprudence musulmane suivant le rite malékite- Khalil Ibn Ishaq al-Jundi- Imprimerie impériale- Paris- 1854.
- Observations sur le Voyage au Darfour: suivies d'un vocabulaire de la langue des habitants et de remarques sur le Nil-Blanc supérieur- Benjamin Duprat- D'A. Sirou- Paris- 1845.

- Voyage au Darfour, ou L'aiguisement de l'esprit par le voyage au Soudan et parmi les arabes du centre de l'Afrique, par Mohamed Ibn Omar Al Tunsi- Benjamin Duprat- Paris- 1850.
- Voyage au Ouaday, par Mohamed Ibn Omar Al Tunsi- Benjamin Duprat- Paris-1851.
- Exploration Scientifique de l'Algérie pendant les Années 1840, 1841, 1842, [1843, 1844 et 1845] publiée par ordre du gouvernement et avec le concours d'une commission académique-Sciences historiques et géographiques 15 Précis de Jurisprudence Musulmane : ou Principes de législation musulmane civile et religieuse selon le rite Malékite / Khalil Ibn-Ishâk. Nicolas Perron [Übers.] Tome 6- Imprimerie Royale- Paris – 1852.
- Le Nâcérî, La perfection des deux arts, ou Traité complet d'hippologie et d'hippiatrie arabes...Par Abou Bakr ibn Badr, 3 vol., Ve Bouchard- Huzard- Paris- 1852-1860.
- La Médecine du prophète, de Djalâl al-dîn al-Suyuti- Extrait de la "Gazette médicale de l'Algérie" - Tissier- Alger- 1860.
- Glaive des couronnes (Seîf-el-Tîdjân)- B. Duprat- Paris- 1862.
- Balance de la loi musulmane, ou, esprit de la législation islamique et divergences de ses quatre rites jurisprudentiels, par Abdel Wahab El Sha'rani- Imprimerie de P. Fontana- Paris- 1898.

## مواقع الإنترنت المخصصة لنيكولا بيرون :

- https://data.bnf.fr/fr/12198975/nicolas_perron/
- http://worldcat.org/identities/lccn-nr88005666/

## المراجع العربية:

### *أولاً : الكتب*


- أحمد عزت عبد الكريم: تاريخ التعليم في عهد محمد علي، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، 1938.
- إدوارد سعيد: الاستشراق: المفاهيم الغربية للشرق، ترجمة محمد عناني، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، 2006.
- د. جمال الدين الشيال: *تاريخ الترجمة والحركة الثقافية في عصر محمد علي* - دار الفكر العربي- القاهرة – 1951.
- رفاعة الطهطاوي: مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية - مصر – مكتبة شركة الرغائب- 1912.
- على محمد محمد الصلابي: *الأمير عبد القادر محيي الدين الجزائري قائد رباني ومجاهد إسلامي* - دار المعرفة- بيروت- لبنان.
- محمد طلعت عيسى: *أتباع سان سيمون بمصر، فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر*- القاهرة- مطبعة جامعة القاهرة- 1963.
- محمد فؤاد شكري: *بناء دولة مصر محمد علي*- القاهرة- الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1983.
- محمود الشرقاوى: *مصر في القرن الثامن عشر*- القاهرة- مكتبة الأنجلو المصرية- الطبعة الثانية- 1957.
- نجيب العقيقى: المستشرقون، دار المعارف: القاهرة – مصر، الطبعة الثالثة، 1964م عدد الأجزاء: 3.
- يوسف إليان سركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة- القاهرة - مكتبة الثقافة الدينية- 2008.

**ثانياً : المقالات**

- د. جمال الدين الشيال - *دكتور برون والشيخان محمد عياد الطنطاوي ومحمد عمر التونسي* -كلية الآداب- جامعة فاروق الأول - المجلد الثانى - 1944.

**ثالثاً : مواقع الإنترنت :**

- https://heritage.bnf.fr/bibliothequesorient/ar/nerval-art-ara
- http://Kalema.net/home/article/view/1318

## المراجع الأجنبية:

### *I: Livres*


- Magali Morsy – Les Saint-Simoniens Et L'Orient, Vers la modernité- EDISUD- Paris- 1989.
- Daniel Lançon - Les français en Egypte, De l'Orient romantique aux modernités arabes- Presses universitaires de Vincennes- Paris- 2015.
- Randa Sabry et autres- Voyager d'Egypte vers l'Europe et inversement, Parcours croisés (1830-1950)- Classiques Garnier- Paris- 2019.
- Xavier Marmier, *Du Rhin au Nil*, *Tyrol, Hongrie, Provinces danubiennes, Syrie*, *Palestine, Egypte, Souvenirs du voyage*, Paris A. Bertrand 1847 t. 2,
- Victor Schœlcher, *l'Egypte en 1845*, Paris Pagnerre, 1846.
- Charles Baudelaire, Correspondance, Claude Pichois, Gallimard, 1973, t 1.


### *II : Articles*


- AURIANT. P, Un médecin orientaliste, le docteur Perron, L'Acropole. Revue du monde hellénique, t. V, janv-juil. 1930, PP 230-233.
- De Sacy. Silvestre, Journal des savants, mars 1817
- De Perceval. Caussin, Nouveau journal asiatique, août 1833, P9
- Messaoudi. Alain, L'orientalisme des saint-simoniens entre Revue de l'Orient et Revue Orientale in Approcher l'érudition à une approche sensible de l'Orient arabe. Texte publié dans Michel Levallois et Sarga Moussa- Maisonneuve et Larose- Paris 2006- PP 173-193.

- Mohl. Jules, Rapport annuel 1860, Journal asiatique, juillet 1860.
- Morand Félix, *L'Illustration*, n.456, 22 novembre 1851.
- Pavie. Théodore, *Le voyage au Darfour*, Revue **des** deux mondes, t 45, Vol.13, janvier 1846.
- Dr Perron et Théodore Bianchi, *'Lettre sur les écoles de l'imprimerie du pacha d'Egypte* », Journal asiatique, Juillet-août 1843, p. 5-31.
- Quatre mère Etienne, Voyage au Darfour, Journal des savants, avril 1853.
- Renan Ernest, *Compte-rendu*, Journal asiatique, mai 1859.

## *IV- Dictionnaires*

- Dictionnaire des orientalistes de langue française- François Pouillon (éd.) – Paris- 2012.
- https://www.marefa.org